أنطونيو دي سان مارتين

مدينة النُّعاس

رحلة إلى داخل المغرب



المركز الثقافي العربي

أنطونيو دي سان مارتين

مدينة النُّعاس

رحلة إلى داخل المغرب

ترجمه عن الإسبانية:
مصطفى الورياغلي


المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للكتاب:

Antonio de San Martín

La ciudad del sueño

Viaje al interior de Marruecos

الكتاب

مدينة النُّعاس

تأليف

أنطونيو دي سان مارتين

ترجمة

مصطفى الورياغلي

الطبعة

الأولى، 2018

عدد الصفحات: 256

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-877-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

شكر خاص

إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد بوجنان
على ما بذله من جهد في مراجعة
هذه الترجمة وتدقيقها لغوياً

الفهرس

الفصل الأول: من كورونيا إلى جبل طارق 11

الفصل الثاني: جبل طارق - مدينة طنجة - المؤذِّنون وجرس دير المبشِّرين الفرنسيسكانيين 21

الفصل الثالث: إيستر اليهودية - بداية مغامرة غريبة ونهايتها .. 31

الفصل الرابع: بادية القصر الكبير - العرائش - المدفع المقدّس - شعوذة اليهود 41

الفصل الخامس: نائب قنصل إنجليزي - بيتُ محمد - ضحك مستمر 49

الفصل السادس: ليلة ماجنة في المغرب - نبتة الجنة - آثار الكيف 59

الفصل السابع: الفرّوج - حفلات الزفاف عند المغاربة - عدالةُ أبٍ مرعبة 67

الفصل الثامن: خطر الموت 77

الفصل التاسع: حيث يظهر سبب دموع بن قصبة الحلّوف - عدالة أحد الباشوات 85

الفصل العاشر: جرائم امرأة عاشقة - العقاب البربريُّ الذي فُرِضَ عليها - امرأة الخشب 93

الفصل الحادي عشر: احتفالات المولد - أراجوز من بلاد البربر 101

الفصل الثاني عشر: تكملة ما سبق - الخِتان - عيساوة - سباق الخيول 109

الفصل الثالث عشر: السفارة الإسبانية - مدينة موغادور - رسالة إلى الصّدر الأعظم 119

الفصل الرابع عشر: إناء الحليب - الضيافة بين المغاربة - تاجر الزُّمُرُّد 127

الفصل الخامس عشر: ستار الكعبة الأسود، أو بيت الله - الحجُّ إلى مكّة 135

الفصل السادس عشر: في عمق المغرب - مرور السّيل - حيوية مُمَثِّلنا 143

الفصل السابع عشر: مدينة النُّعاس - بطاقة الصدر الأعظم 151

الفصل الثامن عشر: زيارة الصدر الأعظم - عيد الأضحى 159

الفصل التاسع عشر: حفل استقبال في المغرب - مدينة النُّعاس - يهود مساكين! 171

الفصل العشرون: قصة حب مغربية - حدائق السلطان - نهاية الرحلة 181

الفصل الواحد والعشرون: مغاربة الريف 189

الفصل الثاني والعشرون: ذكريات من طريفة - في مدح الغرباء 199

الفصل الثالث والعشرون: لصُّ العلق - إتلاف قبعتَين لإنقاذ أضلع رجل من مئة سوط 209

الفصل الرابع والعشرون: تعذيب همجي 217

الفصل الخامس والعشرون: دافنو الذهب 225

الفصل السادس والعشرون: وداعاً أفريقيا! الوداع! 235

خاتمة 241

الفصل الأول

من كورونيا إلى جبل طارق

كنت موجوداً، منذ سنوات قليلة، بكورونيا، المدينة التي ولدتُ بها. وكنتُ يومئذ لا أزال شابّاً يافعاً، وكانت رغبة السفر وزيارة البلاد تلحُّ عليَّ إلحاحاً قويّاً حرمني من الاستمتاع بالملذات المناسبة لشاب في مثل سنّي.

ولم تكن أسرتي المحترمة تملك من الثروة ما يسمح لي بإشباع رغبتي المشتعلة في السفر عبر أوروبا، وفي المقابل كانت ترسلني بانتظام إلى البلدات الخلابة في بلادي. غير أن تلك الرحلات الصغيرة، عوض أن تهدئ من ولعي برؤية البلاد، كانت تزيد قلبي ظمأ إلى اكتشاف الأصقاع الجديدة.

لم أكن وقتئذ أقرأ إلا كتب الرحلات، مؤثراً منها ما يتحدث عن المغامرات البعيدة في بلاد مجهولة. وكانت تلك القراءات، على الرغم من فوائدها الجمّة، خطيرة جدّاً بالنسبة إليّ، حيث كانت تلهب النار بداخلي وتزيدها سعيراً.

وكان لي صديق من أصدقاء الطفولة يعمل أبوه في منصب سامٍ: كان وزير دولة. وكان ذلك الصديق على علم برغبتي المُلِحَّة في السفر،

وأحبَّ أن يُرضيني، فحصل لي على وظيفة محترمة في الخارج، أتقاضى مقابلها أجراً لا بأس به.

وكان التكليف الذي وصلني، وكُلِّي فرحٌ وسعادةٌ، مصحوباً برسالة من صديقي، قرأتُ في نهايتها ما مضمونه:

«انهض بهمّة بالمهمة التي أوكِلَتْ إليك وكُن على يقين أن كفاءاتك ستسمو بك يوماً ما، عاجلاً أو آجلاً، إلى تحقيق مستقبل مهنيٍّ باهر. إن البلد الذي ستعيش به، على الرغم من قربه من إسبانيا، فإنه يكاد يكون مجهولاً. ادرس بدقة عاداتهم، وكُن حريصاً على رضى رؤسائك، وفي أوقات فراغك أَلِّفْ لنا كتاباً يساعدنا على معرفة تلك البلاد غير المُكتَشَفَة».

كان صاحب تلك الكلمات هو مانويل كلدرون، نائب في البرلمان الإسباني آنئذ، وأحد الأشخاص الذين غمروني ببراهين المحبة والصداقة الوفيّة.

قمتُ بإعداد ما أحتاجه في سفري، يغمرني فرح دافق وإثارة محمومة، بينما كان والدي الشيخ، وشقيقتي الغالية، وكلُّ أقربائي، وبعض أصدقائي المقرّبين، يبدون شدة حزنهم لما سأقبل عليه من مغامرة.

لقد حاول أبي، وبعض الأشخاص الذين لهم عليَّ نوع من السلطة، أن يقنعوني بالعدول عمّا اعتزمتُهُ، لكن كل جهودهم ذهبت سدى، فقد كنتُ شديد الحماس، وأكاد أُجنُّ فرحاً بتلك الرحلة التي ستتيح لي أن ألبِّيَ رغباتي، ولا شيء في هذا العالم كان في إمكانه أن يردّني عمّا انتويتُهُ.

كانت وجهتي إلى بلاد المغرب.

كانت تلك الإمبراطورية التي خرجت للتوّ من حرب ضد إسبانيا، حيث كان النصر فيها سريعاً ومجيداً لصالح وطننا الأم، تجثو مهزومة، تكاد تكون مذلولة تماماً، وكانت ملزَمَة بأن تدفع لنا تعويضاً كبيراً عن نفقات الحرب، نحصل عليه من نصف مداخيل الجمارك.

وقد كنتُ مكلَّفاً بتحصيل تلك المداخيل بمدينة العرائش، ثم أن أعمل بعد ذلك تحت الأوامر المباشرة لفخامة السيّد دون فرانسيسكو ميري وكولون، الوزير المفوَّض لصاحب الجلالة الكاثوليكي بمدينة طنجة.

وكان من الواضح أن الوظيفة التي أُسندت إليّ على قدر كبير من الأهمية، وربَّما أكبر من قدراتي، لكنها لم تكن فوق نزاهتي التي لم أفَرِّط فيها، بحمد الله، لحظة واحدة.

وكانت الاعتراضات التي لا يفتأ يواجهني بها، سواء والدي، أو أولئك الذين يهمّهم شأني، لكي يقنعوني بأن أرفض تلك الوظيفة، تُجمِعُ على أن المغاربة الذين هزمناهم منذ مدة قصيرة، لا بدَّ يحتفظون في قلوبهم بحقد أفريقي ضدّ كل ما يصدر عن إسبانيا.

- سيقتلونك غدراً في أيّ يوم -كان يصيح أبي والدموع تكاد تفرُّ من عينيه- لقد غادر الجيش الذي كان يحتل مدينة تطوان ولم يبقَ في كل بلاد البربر[1] ولو جنديّ واحد من جنودنا. ماذا سيكون مصير أولئك الإسبان التعساء الذين يعيشون من الآن فصاعداً في ذلك البلد نصف المتوحِّش؟ سيموتون! سيموتون! لا شكّ في ذلك، ضحايا أحقاد

---

(1) كان الأوروبيون بين القرنَين السادس عشر والتاسع عشر يطلقون لفظ Berberia على المناطق الساحلية للمغرب والجزائر وتونس وليبيا. (المترجم)

الجنس البشري التي أجّجتها، اليوم أكثر من أي وقت مضى، تلك الحملة العسكرية المظفّرة التي حقّقتها إسبانيا مؤخّراً.

- أبي العزيز! -كنت أجيبه متأثِّراً بمظاهر حنانه، لكن عازماً على التشبّت بقراراتي- أنا لستُ غنيّاً، لذلك يتحتّم عليّ أن أبني لنفسي مستقبلاً مهنيّاً. وقد شرع أمامي صديقي العزيز كلدرون أبواب مستقبل نبيل ولامع في الآن عينه، وسيكون عملاً مخالفاً للضمير، بل نكراناً للجميل، إن أنا رددتُ هذا المستقبل الرائع الذي يهدونه لي.

- آه! -كان يضيف والدي الحبيب- لو أن أمَّكَ ما زالت حيّة لاستطاعت بكل تأكيد أن تحقِّق بدموعها وتوسّلاتها ما لم أستطعه أنا بملاحظاتي المتكررة!

كانت تلك الكلمات تسبِّب لي قلقاً كبيراً، ونوعاً من النّدم، بل إن الأمر وصل بي إلى حدِّ الاعتقاد بأني كنت أرتكب عملاً سيّئاً برفضي الانصياع لرغبات والدي؛ غير أن ولعي بالسفر كان أقوى من عاطفة البنوّة لديّ، وهكذا ركبتُ البحر، ذات ليلة، متوجِّهاً نحو قادش على متن السفينة البخارية الرائعة «إسترامادورا».

وكم آلمني، زمناً بعد ذلك، وقد مات والدي، أني لم أهدئ من قلقه بقبولي البقاء إلى جانبه. مات! مات الشيخ الحنون، دون أن أحظى بعزاء إغماض عينيه!

عقاب سماويٌّ عادل!

لن أرهق انتباه قرّائي بذكر تفاصيل رحلتي إلى قادش. توقفت بنا السفينة البخارية «إسترامادورا» بكاريل، ثم ببيكو ولشبونة، تلك المدينة الجميلة التي أدهشتني ببناياتها الرائعة.

وكنت لا أزال مشغول البال بذكرى أسرتي وبتلك المدينة الجميلة التي كانت مهد طفولتي، عندما نزلتُ بالمدينة التي تُلقَّبُ عن جدارة بجوهرة الأندلس.

استطاعت قادش، قادش البهيجة، أن تخفّف عنّي بعض أحزاني، كما أن الأشخاص، الذين كنتُ أحمل إليهم خطابات توصية، لم يدَّخروا جهداً من أجل جعل فترة إقامتي بتلك المدينة مريحة وممتعة.

وبعد انصرام أيام معدودة قرّرتُ استئناف رحلتي، وركبتُ البحر من جديد نحو جبل طارق على متن السفينة البخارية ذات العجلات «ليون بيلكا»، التي كانت تقوم حينئذ بتلك الرحلة مرّة كل أسبوع.

وبينما نحن نقطع المضيق، الذي تختلط مياهه من جانبٍ بمياه البحر الأبيض المتوسط ومن الجانب الآخر بمياه المحيط الأطلسي، شاهدتُ مدينة طريفة، موطن ذكريات الأمجاد.

تهيَّأ لي، ونحن نعبر قبالة أسوارها، أني أنظر إلى البطل قزمان إلبوينو[1]، وهو يرمي بخنجره من فوق السور نحو الأمير الخائن والمسلمين الذين يناصرونه، صائحاً بصوت جهوريّ:

- أيها الجبناء! لن أبيع الأسوار التي عهد إليَّ بها الملك! إني أحتقر تهديداتكم، ولكي تروا مقدارها عندي هاكُم خنجري. اذبحوا به

---

(1) أو قزمان الطيّب هو لقب ألفونسو بيريز دي قزمان (1256-1309)، أرستقراطي وقائد عسكري، اشتهر بمشاركاته في حروب المرينيين بالأندلس وبواسطاته بين ملوك المغرب المريني وإسبانيا. ويشير الكاتب هنا إلى الدور الذي قام به قزمان هذا في الدفاع عن قلعة طريفة التي عهد إليه الملك سانشو الرابع بحمايتها من هجوم أخيه الأمير دون خوان الذي استعان في تمرّده بأحد قوّاد بني مرين سنة 1294. وفي تلك المعركة سيكون مقتل ابن قزمان، الذي سيتحوّل إلى أسطورة. (المترجم)

ابني البريء! اهرقوا دمه أيها الأوغاد! لكن لعنات السماء ونقمة الناس أجمعين ستنزل بكم، وخصوصاً أنت أيها الأمير الخائن دون خوان!

تُضفي تلك الذكريات البطولية، الفريدة من نوعها في التاريخ، شرفاً تليداً على أسوار طريفة، حيث لا يستطيع المرء أن يزورها دون أن يشعر بالمرارة، عندما يقارن الحقبة التي شهدت ذلك الحدث العظيم بهذا الزمن الذي نعيش فيه، زمن البخار وصناديق الفوسفور.

تنتصب قبالة طريفة سلسلة جبلية حادة، بقممها الشاهقة، ذات المظهر المتوحش، ورمالها القاحلة التي تغمرها مياه أمواج المضيق. وأبعد من ذلك بقليل، جهة اليمين، كانت تبدو مدينة سبتة ملتصقة بالمكان المعروف برأس أفريقيا.

تشكِّل سبتة بقلاعها الحصينة كابوساً مقيماً بالنسبة إلى الإنجليز، مستوطني الصخرة الجارة المسمّاة جبل طارق، ليس فيها أي شيء يمكن أن يسترعي اهتمام المسافر وفضوله. إنها حاضرة بلا حياة، معسكرٌ يرزح في مَلَلٍ تحت ظلال أسوار صلبة، تُشكِّل سدّاً تكبح به إسبانيا، منذ أزمنة غابرة، شعوبَ السودان الهمجية، والقبائلَ المُقلِقَةَ والمِقدامةَ التي تقيم عند سفوح الأطلس، وكلَّ أبناء هاجَر الذين يكوِّنون إمبراطورية المغرب القويّة.

بعد سبتة، سرعان ما ظهر جبل طارق، ونحن لا نزال نمخر العباب على ظهر السفينة البخارية الصغيرة. تلك الصخرة العظيمة الشمّاء، التي تتمدّد المدينةُ عند قدميها، كانت في ملكيتنا كما يعلم العالم أجمع، ولم يكن ذلك في زمن بعيد، لكنها اليوم تحت سلطة إنجلترا التي تملكها. وكل إسبانيٍّ يحبّ وطنه لا بدَّ أن يستشعر في أعماق روحه سخطاً وغضباً لا حدّ لهما، عندما يفكر في أن ذلك العملاق المجبول من الجرانيت،

الصامد في وجه أمواج البحر الأبيض المتوسط، إنما هو ملك لنا، ملك لنا وحدنا، وأنها وحدها الخديعة الآثمة سمحت لعَلَم بريطانيا العظمى أن يرفرف فوق تحصيناته المنيعة، بدل أن يرفرف فوقه علمنا المجيد وقد صار اليوم مهيباً مُبجَّلاً.

عندما رأيت لأول مرة تلك «المِلكية» الإنجليزية (والتي، يجب أن أقول بالمناسبة، لو أنها كانت اليوم في ملكيتنا لفقدت الكثير من أهمّيتها بسبب سوء تدبيرنا)، أخذت أتذمّر بغضب مكبوح بصعوبة، قائلاً:

- جبل طارق! جبل طارق! إذا لم تَدفِنْ في غياهب البحار عاركَ، وظللتَ ترفع رأسك المتعجرف فوق أمواجها، فلتحلَّ عليك اللعنات!

الفصل الثاني

جبل طارق - مدينة طنجة - المؤذِّنون
وجرس دير المبشِّرين الفرنسيسكانيين

كان أوَّل ما رأيتُ، عند دخولي إلى جبل طارق، حشداً كبيراً من الناس يتجمّعون في ساحة السلاح، يتابعون فظاعة مشهد الإعدام شنقاً، حيث كان شابٌّ مذنبٌ يدفع، في تلك اللحظة، ثمنَ جرائمه. أعرضتُ عن ذلك المشهد الرهيب، وتبعتُ الرسول الذي تكفَّل بحمل أمتعتي، حيث قادني إلى نزلٍ يحمل اسم «الماسونيون».

عندما أخذت قسطاً من الراحة خرجت أتجوّل في المدينة، وكانت الساعة الثانية عشرة زوالاً. في تلك الفترة يخرج الناس للتجوّل ذهاباً وإياباً، متحلّقين هنا وهناك، في الشوارع الجميلة لتلك الحاضرة المشهورة لدى الجميع بأهميتها التجارية.

يختلط في شوارع جبل طارق ويتلاقى جنود إنجلترا بمعاطفهم الحمراء، وكتائب الإيسكوسيين ببدلاتهم الغريبة، ومسلمو الجزائر وأرض البربر بأزيائهم الرفيعة الملوّنة، وعبرانيو جيروساليم بعباءاتهم السوداء، والصينيون، وحتى سكان أقصى بقاع الأرض، فيضفون على تلك الشوارع طابعاً ذا درجة كبيرة من الروعة والحركة جعلت الكاتب الشهير ألكسندر دوما يصيح متعجِّباً أمام تلك المشاهد:

- يبدو جبل طارق مثل حفلِ رقصٍ مُقنَّعٍ مستمر.

تقطن بجبل طارق ساكنة كثيرة العدد، بالإضافة إلى حاميتها العسكرية المتكونة من عشرة إلى أحد عشر ألف جندي ومن كل أنواع الأسلحة، يعيشون برفاهية في ثكنات الجبل الواسعة.

لا شيء جدير بالدراسة أكثر من تلك الثكنات، والتحصينات العظيمة حول المرتفع الشامخ، المخروط من كل جانب، حيث تبرز هنا وهناك أفواه فوهات النار[1] العديدة، وأضخمها تلك التي تشكل خطوط البطّارية الخفيضة المبنيّة تقريباً على وجه الماء.

وفي قمة ذلك الجبل الجرانيتي توجد بطّارية يعلوها مدفع ضخم بعيد المدى يُسمّى «الفوهة السوداء»، تُطلَقُ منه قذيفة عند كل شروق وغروب.

ومهما يكن جهل الإنسان بالتحصينات وبفنون الحرب فإنه سيدرك بوضوح استحالة السيطرة على جبل طارق، الذي حَبَتْهُ الطبيعة بسور صخريٍّ عتيدٍ، يجعله قادراً على تحدّي أي حصار مهما كانت ضخامته.

لا بدَّ أن يوجد بين قرّائنا من يعتقد أن إسقاط ذلك الحصن قد يكون ممكناً بفضل حصار، قد يقصر أو يطول، يفرض الجوع والعطش على سكّان الصخرة، غير أن المخطِّطين الإنجليز لم يغب عنهم ذلك، ويعتمدون على صهاريج ضخمة من الماء الصالح للشرب، ومخازن أكلٍ عامرة، تُجدَّدُ مدَّخراتها كل ستة أشهر، قادرة على إطعام الحامية والسكان القاطنين عند قدم الصخرة لمدة لا تقل عن عشرة أعوام.

---

(1) يقصد المدافع. (المترجم)

وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافياً، فقد منعوا، تحت طائلة عقوبات صارمة، القنص في الجبل، حيث يكثر بوفرة الحجلُ، والأرانب، والقردة التي ما زالت على توحّشها تهاجم بالحجارة كل من يقترب منها.

قطعة لحم قردٍ مشوية، قد يقول الإنجليز لأنفسهم، ستكون عند الحاجة طَبَقاً لا يقلُّ لذة وتغذية من لحم العجل.

أيُّ أمة تستطيع أن تنتزع من بريطانيا سيطرتها على جبل طارق وقد تحصنت بكل عناصر المقاومة المذكورة؟

ولا واحدة.

إن التفكير في استرجاع تلك الأرض، دون التسلُّح بالوسائل نفسها، التي اعتمدها سادتها الحاليون عند غزوها، سيكون جريمة لا تغتفر.

لم ألبث في جبل طارق سوى يومين، وفي اليوم الثالث، حوالي الساعة التاسعة صباحاً، اتخذتُ مكاني في باخرة «مرّوك[1]» التي كانت متوجِّهة إلى طنجة.

كان العبور قصيراً.

عند نهاية المضيق، وقريباً من رأس سبارطيل المشهور، تنتصب تلك المدينة المغربية.

كانت دورها البيضاء مثل الثلج، المبنية على شكل مدرّج، والصوامع الرفيعة فوق مساجدها المكسوة بالزليج اللامع، والقصبة أو القلعة المحاطة بالمدافع وهي ترتفع فوق المدينة، تشكِّلُ صدمة للعين، رائعة ومدهشة.

---

(1) المغرب. (المترجم)

ولكي تكتمل اللوحة الرائعة، توجد، عند طرف الساحل الرملي الأبيض الذي تمتدُّ قبالته المدينة، مجموعةٌ من الآثار الجميلة التي تعود إلى طنجيس القديمة من عهد الرومان.

ما أن رسا المركب حتى هجم علينا حشدٌ من اليهود، ثيابهم رثّة، وجلودهم دبغتها أشعة الشمس، وشرعوا يعرضون علينا خدماتهم، تُدوِّخنا أصواتُهم الخشنةُ والكئيبة.

وبما أن طنجة لم تكن تمتلك مرسى ولا قوارب صغيرة تنقل المسافرين إلى الساحل، وجدتُ نفسي مضطراً، مثل جميع المسافرين، إلى ركوب كتفَي أحد أبناء إبراهيم، الذي وضعني في لحظات قليلة، دون بَلَلٍ، سالماً معافى، على الشاطئ القريب.

هناك وجدتُ في انتظاري شخصَين من البعثة، أُخْطِرا بوصولي، رفقتهما مغربيٌّ، قويٌّ وأنيق بلباس جزائري.

كان ذلك المغربي يُسمّى سيدي المنصور بنّاصر، وكان يعمل في البعثة الإسبانية بصفة ترجمان.

ها أنا ذا في مدينة بربرية! قلت في نفسي، وأنا أرمي بنظراتي الفضولية في كل اتجاه، أكاد يُغمى عليّ من شدة الحركة التي تسود في كل مكان.

غير أن ملاحظاتي كانت بعيدة جدّاً عن إرضائي، وبعيدة جدّاً أيضاً عن الأوهام الجميلة التي كنتُ شكّلتُها حول تلك الحاضرة المسلمة.

كنتُ أرى حولي مغاربة، متجهِّمي الوجوه بلحى كثيفة، جالسين على عتبات مسجد، أو مستندين إلى جدار بيت، يعدّون حبّات مسابحهم

الطويلة، وهم يرمقوننا بنظراتهم الثاقبة التي كان خيالي يجعلني أقرأ فيها كراهية وأحقاداً دفينة.

كم كنتُ واهماً! كم كان حكمي على أولئك الناس متهافتاً!

سأقدِّمُ وصفاً مقتضباً لمدينة طنجة، حيث يقيم جميع ممثلي القوى الأوروبية. لا تقدِّم تلك المدينة شيئاً جديراً بالاهتمام، إذا استثنينا عدم انتظام بناياتها وضيق دروبها الملتوية. ومهما يبحث الإنسان بفضول ودقّة في أرجاء المدينة فلن يقف على قصور عربية مثل تلك التي تتحدث عنها حكايات **ألف ليلة وليلة**.

المساكن في عمومها صغيرة، وغير منتظمة كما أسلفت، ولها أبواب جد متواضعة إلى درجة أن ولوجها يستوجب إحناء الرأس. وكل تلك الدُّور تلمع ببياض باهر يمنحها جمالاً رائعاً، غير أنه في الوقت ذاته يؤذي أبصار الناظرين عندما تنعكس عليها أشعة الشمس.

لا تقطع رتابةَ أزقة المدينة سوى بعض البنايات ذات الطراز الأوروبي، وهي إما إقامات للسفراء والوزراء المقيمين، وإما مساكن لليهود الأغنياء، الذين يفضِّلون عاداتنا. كما تظهر هنا وهناك مساجد بصوامعها اللامعة والآلاف المؤلَّفة من قطع الزليج؛ لكن معابد محمد تلك تفقد كل جاذبية عند الاقتراب منها، حيث تظهر علامات الإهمال، الذي يحيلها إلى شبه خرابات، وكل ذلك بسبب سوء تدبير المسلمين.

وتنتصبُ في المدينة، في جهات متعددة، نخلاتٌ خضراء، ترتفع بفروعها اللامعة فوق الجدران، فتمنح الظل لأسطح المنازل. وإن النظر ليتوقف بلذّة وارتياح عند تلك الأشجار الجميلة.

تعرف كل جهات طنجة خلال النهار حركة كبيرة، وهو أمر ليس غريباً بالنسبة إلى تلك المدينة لأنها تعتبر الممرّ الرئيس لكل الواردات الأوروبية المستهلكة في بلاد البربر من منتوجات وأثواب، كما أن صادراتهم نحونا تخرج من المدينة ذاتها.

دكاكين التجّار اليهود والجزائريين صغيرة جدّاً، يصعب على أصحابها الوقوفُ داخلها، ويجلسون على الطريقة الشرقية، وسط أثواب مثيرة، وأسلحة بلدية، تتمثل خصوصاً في خناجر ذات أغمدة فضّية، مرصّعة بأحجار كريمة ومليئة بزخرفات عربية رائعة، ومقابض من جوهر الورد وإبرة الراعي.

وبمرور النهار يأخذ الصخب والنشاط الذي يسود الشوارع في الخفوت شيئاً فشيئاً. وعند تلك الساعة، الطافحة بالحزن، يشرع المؤذِّنون في دعوة المؤمنين إلى الصلاة من فوق صوامع المساجد. تُسمَعُ أصواتهم الرنّانة الواضحة، والمفعمة بسحر لا يوصف، تصل من أقصى أطراف المدينة، محمولة على أجنحة نسائم البحار.

وفي اللحظة ذاتها يرنُّ جرسٌ صغير من معبد كاثوليكي[1]، يُذكِّرُ المؤمنين بأوان وقت رفع الدعاء إلى الربّ المتعالي. لو تعلمون، قرّائي الأعزاء، مقدار الحنان الذي اعتراني وأنا أسمع، لأول مرة، رنين ذلك الجرس المسكين، لأن صوتَهُ المعدنيَّ يشبه بقوة صوتَ ذلك الجرس الآخر الموجود في القرية التي رأيت فيها النور لأول مرة!

---

(1) خاص بالمبشرين الفرنسيسكيين الإسبان، ويوجد ذلك المعبد بين مقرّي البعثة الإسبانية والبعثة البرتغالية.

لـم تنبس شفتاي أبـداً، مثل تلك اللحظة، بدعاء كلُّهُ إيمانٌ وضراعة، ولا تذكّرتُ أبي وأسرتي وكلَّ ما هجرتُه طواعية وخلّفته في أرض وطني، بكل تلك المرارة التي استولت عليّ في تلك الليلة الهادئة الساكنة!

وسأكون مجانباً للحقيقة إن لم أعترف أن دعائي وتذكّري لأحبائي كانا مصحوبَين بدموع صامتة، طافحة بالحنان اللامتناهي.

الفصل الثالث

إيستر اليهودية - بداية مغامرة غريبة ونهايتها

لم يمرَّ وقتٌ طويل حتى صرتُ صديقاً حميماً لجميع أعضاء البعثة الإسبانية. وبما أني سأذكرهم عند الحديث عن رحلتي داخل أرض البربر، فسأكتفي هنا بأن أقول إنهم كانوا جميعاً شباباً ومحبوبين إلى أبعد حدٍّ، وبفضل وُدِّ صداقتهم استطعتُ أن أدفن شيئاً فشيئاً ذلك الحزن الذي كان قد تمكّن من قلبي.

كنتُ أقيم في النّزل الفرنسي في انتظار وصول السفينة البخارية الحربية الإسبانية التي ستقلّني إلى العرائش، ومن ثمَّ أتنقّل بين بقية مدن الساحل المغربي. كان يقطن في ذلك النّزل حينئذ ثلاثة ضبّاط من حامية جبل طارق، وبارون نمساوي مولّعٌ بشراب البونتشي[1]، وأسرة أندلسية كثيرة العدد، وفنان إيطالي موفدٌ، من لدن دار نشر في بلده، ليرسم أشكالاً ومدناً مغربية.

كنّا نأكل جميعاً حول مائدة مستديرة، وعندما يحين وقت التحلية ينخرط أولئك الذين يحبّون شرب الخمر وغيره من المشروبات في

(1) شراب كحولي، بارد أو دافئ، يمزج بين الكحول والماء والليمون والسكر، والشاي كذلك في بعض الأحيان. (المترجم)

أشواط استهلاك محمومة وممتعة. وفي إحدى الليالي هربتُ من جلسة من تلك الجلسات الصاخبة، وصعدتُ إلى سطح النزل، الذي كان يمنح المتأملَ رؤية رائعة بفضل موقعه في أعلى نقطة في المدينة.

لن أنسى أبداً المشهد الجميل الذي شاهدتُهُ من ذلك السطح. كان القمر، في كامل بهائه، يضيء بأنواره الفضية أمواج المضيق. وفوق تلك الأمواج كان يعبر قاربان في اتجاه جبل طارق، يدفع شراعيهما الأبيضين نسيمٌ بحري عليل. وفي البعيد، قبالتي، كانت تلمع أنوارٌ، تضيء وتنطفئ مثل نيران مقبرة. كانت أضواء طريفة. وعند قدميَّ تمتدُّ مدينةُ طنجة، يصعد منها همسٌ خفيف وغامض، يضيء القمر جانباً من مساكنها، بينما يبدو الجانب الآخر ملفوفاً في الظلال.

ولإكمال الشاعرية والسحر المنبعث من تلك اللوحة الرائعة كان مغربيٌّ يسكن منزلاً لِصْقَ النزل، يغنّي، على إيقاع آلة شبيهة بالماندولين، أغنية دافئة ورقيقة، ذكّرتني بتلك الأغاني الفاتنة، التي كنتُ أنصتُ إليها بكل نشوة في مدينتي قادش الجميلة.

جلستُ على الحافة المحيطة بالسطح، متأمّلاً تلك اللوحة الجميلة، وأرخيتُ العنان لأفكاري، فحملتني كالعادة إلى حبيبتي إسبانيا. وفجأة أخرجني من تأمُّلاتي الصامتة صوتٌ أنثويٌّ منعشٌ ولطيفٌ مثل تنهّد النسيم، فتبددت كل تلك الأفكار.

التفتُّ جهة الصوت، فرأيتُ، فوق سطح بيت مجاور، امرأة فارعة القامة، تشير إليَّ أن أقترب. أطعتها، وفي الحال وجدتُ نفسي بجانبها، حيث لم يكن يفصل بين سطح بيتها وسطح المنزل سوى سور قصير.

كانت تلك فتاة يهودية، غاية في الجمال، أثارت انتباهي في عدة مناسبات منذ وصولي إلى طنجة.

وكانت تلك اليهودية زوجة يهوديٍّ من مازاغان[1]، رجل غني جدّاً يتاجر في التمر والحايك وبَلغات تافيلالت[2]، وكان اسمها إيستر.

– سيد أنطونيو، – قالت لي بإسبانية رديئة[3]، لكن دائماً بلهجتها اللطيفة – رأيتك منذ عدة أيام، ومنذ ذلك الحين لدي رغبة قوية في التحدُّث إليك. أرجو أن تسامحني على مناداتي إياك.

– ليس هناك ما أسامحك عليه.

– أنا أعرف أنكم المسيحيين – استأنفت إيستر – طيبون في العموم، ولذا لم أتردّد في اللجوء إليك.

أنا متزوجة من يهوديٍّ شيخ وبخيل، الذي ما أن استولى على الصداق النفيس الذي حباني به والدي يوسف، حتى صار يعاملني بسوء ويحبسني كما لو كنت مسلمة. ولا تظنَّن سيد أنطونيو – أضافت متنهدة – أن ما يقوم به صادر عن حبٍّ أو غيرة. لا. لا. فهو لا يحبني ولم يحبني أبداً. لا يدفعه إلى سوء معاملتي إلا قسوته. إنما يحبسني لكي لا يجد نفسه ملزماً بأن يشتري لي الجواهر والملابس.

ولكي تعرف أنني لا أكذب – استأنفت كلامها وهي تُظهِرُ لي عقداً ثميناً من زمرّد يلمع حول عنقها – هذا أفضل ما أملك من جواهر، الجواهر اليتيمة، مع أني أغنى يهودية في طنجة!

---

(1) الاسم القديم لمدينة «الجديدة» المغربية. (المترجم)

(2) الحايك والبلغة لباس نسائي ونعل تقليديان مغربيان. وتافيلالت مدينة في جنوب المغرب. (المترجم)

(3) يتحدث اليهود الذين يسكنون طنجة، وكذلك تطوان والعرائش، بلغتنا ولو بصورة سيئة، أما اليهود الذين يسكنون في باقي مناطق الإمبراطورية فلا يتكلمون سوى اللغة العربية.

وعلى الرغم من قلة معرفتي بالأحجار الكريمة فقد أدركتُ أن عقد إيستر كان غالياً جدّاً. وبسبب ذلك، وكذلك بسبب ملابسها الثمينة، توصّلتُ إلى أن شكواها كانت ظالمة، وأنها إنما تتهم زوجها بالباطل.

لم أدرِ كيف أجيبها فاكتفيتُ بهَزِّ كتفيَّ.

- آه! لا أعلم لماذا لا يأخذ إلهُ إبراهيم زوجي! كم سأكون سعيدة عندئذ!

أدهشتني تلك الرغبةُ اللاإنسانية من مبسم في سحر مبسم إيستر، بل غمرني شعور عارم بالسخط.

مرّرت الفتاة العبرية يدها فوق جبينها، وكأنها تطرد عنها بتلك الحركة أفكاراً غير مرغوبة، ثم نقلت إليّ نظرات عينيها المجروحتين اللامعتين، وسألتني:

- أنت غنيٌّ سيد أنطونيو؟

تردّدتُ قليلاً قبل أن أردَّ على ذلك السؤال الغريب والوقح، ولكنني في الأخير أجبتُ بالنفي.

قالت اليهودية بلهجة فرحة:

- هذا أفضل.

- لماذا هذا أفضل؟

- لأنك، لفقرك، ستقبل بسهولة أن تفعل ما أرغب فيه. أنا أستطيع أن أملأ بالذهب خزائنك، وبالفرح قلبك، إن أنت قبلتَ أن تساعدني في مخططاتي.

كنتُ أنتقل من مفاجأة إلى أخرى وأنا أستمع إلى كلام إيستر، غير أني كنتُ لا أزال بعيداً عن تخيُّل نهاية لتلك المغامرة الغريبة.

ما هي مخططات هذه المرأة؟ -كنت أتساءل- ما الذي رأته في شخصي لتعرض عليَّ المال؟

- سأعرض عليك رغباتي -قالت إيستر قاطعة خيط أفكاري-، تعال. لنجلس هنا.

وأردفت القول بالفعل، فأمسكتني بيدها، وقادتني بخطى سريعة نحو زاوية معتمة من السطح، حيث كان يوجد كرسيّ خشبيّ. جلست فوق الكرسي وأرغمتني بدوري على الجلوس إلى جانبها وهي تجرّني بلطف من يدي التي كانت لا تزال تحتفظ بها بين يديها.

ثم أدنَتْ مبسمها من أذني حتى كادت تلمسني بشفتيها، وقالت لي بصوت هامس:

- أنا أكره زوجي. أكرهه لدرجة أني لو لم أخشَ العقاب لكنتُ قتلته بيديّ. كلما خرج من البيت تستريح روحي وتتنفّس بحرية، كما لو كنت أتخلّص من حملٍ ثقيل. وعندما يرجع في موعد الطعام أو النوم، ينقبض قلبي وأجد صعوبة في حبس انفجار دموع الحنق وانعدام العزاء. أقسم لك بإله إسرائيل، سيد أنطونيو، أني لم يعد في إمكاني أن أعيش أكثر، أعاني من زواج مثل هذا! وكي أتخلّص منه قرّرتُ أن أهرب بعيداً، بعيداً جداً من حضوره المقرف.

أعرف المكان الذي يخفي فيه كنزه، والذي يعود إليَّ قسمٌ كبير منه، إليَّ وحدي، وقبل أن أغادر هذه المدينة دون رجعة، سآخذ ذهبه، وجواهره، وكل فضّته المشغولة. وعندما سيكتشف ضياع كل تلك الأموال سيموت من الحسرة.

إذاً، منذ أن صرتَ تُقيم في هذا النّزل، لاحظتُ أنك كلما صعدتَ إلى السطح وكنتُ أنا فوق سطحي، تنظر إليَّ بإلحاح. ما كان أن يحصل

ذلك لو أني لا أُعجبك. أليس كذلك سيد أنطونيو؟ حقّاً أعجبك، وتجدني جميلة جدّاً، أليس كذلك؟

أوه! لا تقاطعني. دعني أكمل! أنا أعجبك، وأنتَ تعجبني أيضاً.

سأغادر زوجي وآخذ كل أمواله، وأنت سترافقني إلى أرض المسيحيين، حيث سيحسبني الناس زوجتك.

كنتُ مندهشاً لسماع ذلك الاقتراح المُهين والغريب، وكان الغضب يخنق الصوت في حنجرتي.

قد يوجد بين القرّاء من سيظن أني أخترع حكاية، لكني أستطيع أن أؤكد بكلمة الشرف أن ما أوردتُهُ هو الحقيقة الصِّرف.

أوَّلَتْ إيستر صمتي باعتباره موافَقة، فأحاطت عنقي بذراعيها، وقالت لي بصوت متحمِّسٍ:

- عندما اخترتكَ لتشاركني مشروعي، كنتُ متأكدة من أنك ستساعدني على تحقيقه. مباركٌ اليوم الذي وصلتَ فيه إلى طنجة! مباركة المرأة التي حملتك في أحشائها! أحبّك، وسأجعل منك رجلاً سعيداً.

دفعتُ تلك الفاتنةَ الغادرةَ، فسحبتْ ذراعيها من حول عنقي باستغراب، وقلتُ لها:

- يؤسفني أن أوضِّح لك سيدتي أنك عندما ظننتني قادراً على أن أتعاون مع اللصوص قد أخطأتِ خطأ بئيساً. أنا رجل شريف، وأرجو أن أظل دائماً كذلك، أحتقر النساء اللئيمات النزقات، اللواتي لا يكتفين بالإخلال بواجباتهن، فيهربن من أزواجهن بعد أن يستولين على كل ما يملكون.

إذاً، سيدتي، ابحثي لكِ، من الآن فصاعداً، عن شخص آخر تُفضي إليه باقتراحاتك الإجرامية، وادعي الله ألا أقع في غواية إخبار زوجك المسكين، الذي أرثيه بكل روحي.

وبعد أن فرغت من كلامي، ابتعدت بقرف من تلك المرأة، التي كانت تبدو لي مثل أفعى بشعة، عبرتُ حاجز السطح، وبقفزة واحدة انتقلتُ إلى سطح النّزل الفرنسي.

- لعنة الله عليك أيها المسيحي!

صاحت إيستر بصوت مبحوح، وهي تنتفض من غضب، عندما رأت أني رددتُ اقتراحاتها ولم توقعني محاسنُها، وهو الأمر الذي لم تعتد عليه.

لم أُولِ أيَّ اهتمام لغضبها العاجز، وانسحبتُ إلى غرفتي. ولم أعد، بعد تلك الليلة، إلى رؤية تلك العبرية سيئة السمعة. لا أدري إن كانت قد غادرت طنجة بعد أن سرقت أموال زوجها، أم أن وجودي هو الذي كان يمنعها من الصعود إلى سطح بيتها؟

أما من رأيته مراراً في الشارع، فهو زوجها المسكين، شيخ محترم ذو لحية بيضاء وشعر أشيب، وكانت هيأته الناطقة بالطيبة والدماثة تجعلني أعتقد أن ابنة إسرائيل الغدّارة كانت تتحكّم فيه على هواها.

الفصل الرابع

بادية القصر الكبير - العرائش -
المدفع المقدس - شعوذة اليهود

أيّاماً بعد وقوع الذي حكيتُهُ من قبل، رحلتُ إلى العرائش.

تلك المدينة، التي كانت في عهد الملك الرومانسي والمغامر دون سيباستيان تحت حكم البرتغال، هي مدينة حزينة، ومظلمة، وتكاد تتحوّل إلى أطلال.

وغير بعيد عن العرائش توجد البادية المسمّاة بادية القصر الكبير، ذات الذكرى الحزينة. في ذلك المكان وقعت المعركة الدامية التي اختفى فيها المأسوفُ عليه دون سيباستيان إلى الأبد.

لنسترجع ذلك الحدث.

كان لا يزال في بداية حكمه سنة 1577م، عندما أُزيحَ محمد[1] بن عبد الله المشهور، ملك فاس والمغرب، من لدن عمِّه عبد الملك[2]. ظلَّ محمد وحيداً وهائماً في وطنه خلال وقت طويل. حاول، سدى، أن يدفع رعاياه السابقين إلى التمرد على عمِّه المغتصِب.

---

(1) يقصد الملك المخلوع محمد المتوكل من الدولة السعدية. (المترجم)

(2) في النص ورد الاسم مكتوباً مالوكْ (Maluk). والمقصود السلطان أبو مروان عبد الملك. (المترجم)

وعندما رأى أنه لا يستطيع تحقيق غرضه، وأخفق في استمالة حاشية الملك في إسبانيا، لجأ إلى دون سيباستيان في البرتغال، ووعده بنصف ملكه إن هو ساعده على استرجاع عرشه.

كان دون سيباستيان شابّاً، متحمِّساً، وعمليّاً، وطَموحاً إلى المجد. وعبثاً حاول مستشاروه، والذين كان يوجد من بينهم أمه وزوجته، أن يقنعوه بالعدول عن مشروعه. كان دون سيباستيان قد قرّر حماية الملك المخلوع، ولأجل ذلك هيّأ جيشاً كبيراً، وانضمَّ إليه حشد من المغامرين من إسبانيا والبندقية.

نزلت كلُّ تلك الجموع بالعرائش، والتي كانت تابعة، كما قلتُ سابقاً، لحكم البرتغال مثلها مثل مدينة أصيلة، يومَ الثالث من أغسطس سنة 1578م. توقّفَ الجيش الغازي ببادية القصر الكبير المذكورة، قبالة جيش عبد الملك الذي كان أكثر عدداً وينتظر مستعدّاً للقتال.

كان محمد، كما يُفترَضُ، ضمن صفوف جيش حاميهِ، إلى جانب عدد من أتباعه الأوفياء، والذين كانوا مستعدين للموت في سبيل إعادة سيِّدهم إلى الجلوس على عرشه.

عند فجر اليوم الرابع التحم الجيشان، وجُرِحَ دون سيباستيان في أول صدام. لكنه لم ينسحب من ساحة المعركة، بل ظلَّ يقاتل ببطولة نادرة، وظلَّ مصير المعركة، لوقت معيّن، غير محسوم.

لكن الكفّار[1] بذلوا مجهوداً كبيراً، فآلت نتيجة المعركة في النهاية لصالحهم. وفي تلك الأثناء سقط الفارسُ، حامل لواء البرتغال، مقتولاً،

(1) يقصد المغاربة المسلمين. (المترجم)

وسرعان ما اختفى دون سيباستيان في ميدان المعركة وهو يقود هجوماً يائساً رفقة بعض فرسانه.

يقول ماريانا[1] في كتابه **تاريخ إسبانيا** إن الملك الشجاع هلك في ذلك اليوم، هو والمغتصِبُ عبد الملك وابن أخيه محمد. ومن ثمّ صارت بادية القصر الكبير، الدمويّة، مقبرة للملوك الثلاثة.

بينما ينفي مؤرِّخون آخرون موتَ دون سيباستيان في ذلك اليوم المشؤوم. يدّعي بعضهم أنه وقع في أسر الكفّار، واجترَّ حياة بئيسة داخل حصون فاس؛ ويؤكد آخرون أنه استطاع في ليلة الهزيمة ذاتها، أن يصل إلى مدينة أصيلة رفقة عدد قليل من أتباعه، ولا يزال الناس إلى حد اليوم في تلك المدينة، وفق زعمهم، يعرفون البيت الذي استقرَّ فيه.

وفي الأخير لم نعدم من المؤرِّخين من ذهب إلى أنه الحبّ، وليس الأَسر، الذي جعله ينسى عرشه ووطنه، وأبقاه في بلاد البربر سجين قيود لطيفة.

ويبقى ما ذهب إليه ماريانا، في رأينا، هو الأقرب إلى الصواب، وأما جثة ملك البرتغال فلا بدَّ أنها اختلطت بجثث العدد الهائل من الفرسان، الذين هلكوا في ذلك اليوم في بادية القصر الكبير، أو ضاعت عند عبور النهر الذي يجري قريباً من موقع المعركة.

---

(1) خوان دي ماريانا (1536-1624)، مؤرِّخ إسباني ألَّف كتاب **تاريخ إسبانيا** في ثلاثين جزءاً، بدأ صدوره عام 1592م باللغة اللاتينية، ثم ترجمه إلى الإسبانية المؤلف نفسه وأصدره عام 1601م بعنوان **تاريخ إسبانيا العام**. (المترجم)

وقد جرف ذلك النهر، الذي يضيق في تلك الناحية، عدداً هائلاً من الجثث، وصار ملوَّثاً بجداول الدّم التي امتدّت إليه، إلى درجة أنه لا يزال إلى حد اليوم يُعرف باسم «نهر ضحايا الطاعون»[1].

قطعتُ بادية القصر الكبير ذات الذكرى الحزينة، فألفيتُها مهملة، وعلى الرغم من أنها كانت مسرحاً لحرب دموية منذ ثلاثة قرون، فإن آثار ذلك الحدث الأليم لا تزال قائمة. ما أن تحفر قليلاً في الأرض حتى تعثر على بقايا دروع، وسيوف مكسَّرة ومتآكلة بفعل الزمن، وبقايا آدمية نصف مدفونة في تلك الأرض الموسومة بالألم والموت.

ليس من الغريب أن تشاهد في أزقة العرائش الملتوية، والتي لا يهتمُّ أحدٌ بتنظيفها، حميراً وكلاباً نافقة، وأكواماً ضخمة من التين الشوكي تتعفّن في الهواء الطلق، تحت فعل الشمس المحرقة.

ومغاربة تلك المدينة الحزينة هم أكثر تطرّفاً وشعوذة ممّا يمكن أن يتخيّله المرء. والدليل على ذلك أن البطّاريات المواجهة للبحر يوجد ضمنها مدفع ذو شكل قديم ومن عيار ثقيل، يخصُّونه بطقس مضحك.

يبدو أن ذلك المدفع صنعه مرتدٌّ إنجليزي، غير أنه أخفى عن المغاربة فنَّ السَّبك. ويؤكد مغاربة العرائش بشكل قاطع أن المدفع المقدَّس يترك كل ليلة السور، ويذهب للصلاة بكل هدوء عند ضريح وليَّةٍ اسمها «لَلَّا منّانة»، يوجد قرب المدينة: يشهد أكثر من مئة شخص على صحّة وقوع تلك المعجزة. ويغطَّى المدفعُ بعناية بقماش سميك.

---

(1) المقصود النهر المعروف في المغرب بـ «وادي المخازن» قرب مدينة القصر الكبير. (المترجم)

ويلٌ لمن يجرؤ على السخرية من ذلك الإيمان البليد! وشقيٌّ من يحاول أن يبرهن لهم أن المدفع مادةٌ غير حيّة، لا تستطيع أن تتحرّك من ذاتها!

وبما أننا بصدد الحديث عن الشعوذة، سأذكر كذلك واحدة ينفرد بها يهود العرائش.

عندما يولد طفل ينتمي إلى ذلك الجنس البئيس والمُزدرى، يوقد أبوهُ مجمرة أمام باب بيته، ويرمي وسطها أحذية قديمة، وحفنات من الملح وأشياء أخرى، فتُحدث فرقعة ودخاناً مقرفاً.

يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون أن الأرواح الشريرة التي تمقتُ الروائحَ الكريهة (والأرواح في ذلك على صواب)، لن تستطيع السيطرةَ على روح الوليد الجديد.

ولا يقنع الأب بما سبق، حيث يتسلح بهراوة غليظة، ويقف عند مدخل البيت، ويشرع في توجيه ضربات في الهواء وإلقاء لعنات رهيبة ضدّ الأرواح الشريرة.

ستكون مهمة لا نهائية محاولة جرد العقائد العبثية والمضحكة، التي يؤمن بها أولئك الناس الأكثر جهلاً وانحطاطاً ووضاعة في كل إمبراطورية المغرب.

الفصل الخامس

نائب قنصل إنجليزي -
بيتُ محمد - ضحك مستمر

بـدأتُ أشعر بالملل في مدينة العرائش الحزينة والصامتة، لأني اعتدتُ حياة نشيطة وهائجة، ولـم يكن لذلك الهدوء الذي يُشبه هدوءَ القبور (عذراً للتشبيه) أن يناسبني أو أن أستلطفه.

كانت تسليتي الوحيدة القيام بجولات طويلة فوق الحصان رفقة مستر بارا، نائب القنصل الإنجليزي، والصيد بالقصبة في سواحل البحر. لا شيء أكثر براءة من تلك التسليات.

كان مجرد وصول فلوكة من إسبانيا ورسوِّها في خليج تلك المدينة الحزينة، يُعَدُّ بالنسبة إلـيَّ حدثاً حقيقيّاً. وكيف لا؟ وقد كانت تلك المراكب تحمل إليَّ كُتُباً، وجرائد، وخصوصاً أخباراً من أولئك الذين هم أحبُّ الأشخاص إليّ وأغلاهم عليّ.

كم مرّة راقبت تلك القوارب الصغيرة، وهي تنطلق نحو قادش أو مالقة أو لشبونة، محمَّلة بالتمور والبرتقال، وروحي تطفح بالألم!

لاحظَ السيد اللطيف مستر بارا أن المشروبات الروحية التي كان مولّعاً بها وينصحني بتعاطيها، غير كافية لمداواة حزني، وأني لم أكن أهتمُّ كثيراً بتلك الجميلات اليهوديات اللواتي كانت نظراتُهنَّ تتابعنا بإلحاح وتحرُّش، فقال لي ذات يوم:

- أنت لا تعرف المغربيات، وهذه الليلة سأقدِّمهنّ لك في بيت شابٍّ جزائري، صديق حميم لي، مالك مطلَق لدزينة من الجميلات الأفريقيات، جديرات بإذابة الثلج ذاته بنيران نظراتهنّ.

سافر الجزائريُّ كثيراً في أوروبا، وهو غير ملتزم تماماً، إلى درجة أنه يشرب الخمر مثل «حلّوف»[1]. ودون أن يحتقر عادات وتقاليد أبناء ديانته، فإنه محبٌّ كبيرٌ لحضارتنا. وبكلمة واحدة، فإن الجزائري الطيب قد احتفظ لنفسه بأحسن ما لدى المغاربة، وأخذ منّا كلَّ ما بدا له نافعاً ومريحاً.

وقد استأذنته في أن أقدِّم أحدكما للآخر في منزله فوافق بكل سرور. وهذه الليلة، سيقيم لنا، احتفالاً بتعارفكما، وجبةَ عشاء، لن تغيب عنها، بكل تأكيد، خمور جيدة من فرنسا وإسبانيا، وكذلك نساؤه الستُّ الجميلات. استعدّ إذاً لتمضية ليلة ممتعة ومسلية.

فرحتُ، من جانبي، كثيراً بتلك الدعوة، فقد كنتُ شديد الرغبة في التعرُّف إلى المغربيات. كل اللواتي رأيتُهنّ إلى حدِّ تلك الساعة كنّ يتنقّلن ملفوفات من الرأس إلى أخمص القدمين في حايك كبير من الصوف الأبيض، لا يترك منهنّ ظاهراً سوى عين واحدة، ومن ثم فقد كان لُطفُ نائب القنصل جدَّ مناسب لي.

كنتُ أجهل أن المغاربة، بشخصياتهم القاسية والعابسة، لا يعاملون نساءهم باعتبارهنّ الرفيقات اللطيفات اللواتي يتقاسمن الحياة مع الرجال

---

(1) كلمة من الدارجة المغربية معناها «خنزير» وهي واردة في النص الأصلي بصيغتها المغربية. (المترجم)

بحلوها ومُرِّها، بل باعتبارهنّ أشياء من أجل اللذة، أقل قيمة بكثير من حصان جميل، أو من كلب قنصٍ جيّد.

وكنتُ أعرف ألّا فرق لديهم تقريباً بين زوجاتهم وإمائهم، وأن جميعهنّ لا دخل لديهنّ إلا في ما يتعلق بالشؤون المنزلية الأقل أهمية. ولم أكن أجهل أن المغربيات، تلك الكائنات الملتهبات والعاطفيات إلى أقصى حدّ، يُقَدِّرنَ كثيراً الرجال المسيحيين، لأنهن يعلمن أنّنا لا يُسمح لنا بأن نحبَّ أكثر من امرأة واحدة في الوقت ذاته، وأن هذه المرأة التي تُشكِّلُ النصفَ الجميلَ من الجنس البشري هي محترمة، ومحبوبة، وموضوع أعلى تقدير لدى كل شعوب أوروبا.

كنتُ أفكر في كل ذلك وأنا أنتظر بقلق حلول الليل. نادراً ما بدا لي الوقت بذلك البطء، ولا نفد مني الصبرُ مثلما وقع لي ذلك اليوم.

وفي الأخير حلَّ الليل، ووجدني مستر بارا مستعدّاً لمرافقته. لم تكن المسافة بعيدة بين النّزل وبيت الجزائري، فلم نلبث أن وصلناها سريعاً.

كان محمد، وهذا اسمه، شابّاً ذا بشرة بيضاء، رقيقة ومشرّبة بحُمرة، مثل بشرة امرأة جميلة. لحيته مهذَّبة بعناية كبيرة، وعيناه سوداوان، بهيجتان وودِّيتان.

- سيدي! - قال لي بإسبانية سليمة - أعلم من صديقي مستر بارا أنك شديد الكآبة في هذه البلدة الحزينة، وفي الحقيقة لا تنقص الدوافع لذلك. بلاد البربر هي في عمومها حزينة وبغيضة، غير أن العرائش أحزنُها وأبغضُها. ولذلك يتوجَّبُ علينا، نحن المقيمين في هذه البلاد، أن نوفِّرَ للأجانب أكثر ما يمكن من التسليات.

أنت صديقُ مستر بارا، ومنذ اليوم ستكون صديقي كذلك. والأصدقاء الذين يُشَرِّفون هذا البيت لا أطلبُ منهم سوى شيئين اثنين:

بهجة كثيرة، وشهيّة كبيرة. ابتهج إذاً، و«رحبة هي قشتالة»[1] كما يُقال في إسبانيا.

لم يكن في الإمكان أن أحظى بترحيب أكثر صراحة وودّاً من ذاك الذي خصَّني به الجزائريُّ اللطيف.

- سأقدِّمُ لك نسائي - استأنف مبتسماً بمكر - أُنَبِّهُكُ إلى أن ليس بينهنّ زوجة شرعية، أو من قد تأسرني بمحاسنها. يمكنك إذاً معاملتهنّ بذلك الغزل المكشوف الذي تتقنوه أنتم الإسبان، دون أن يغضبني ذلك. بل تستطيع إن شئتَ - أضاف خافضاً صوتَه - أن تخطف مني قلبَ إحداهنّ. افعل ذلك دون تردد أو خشية، فصداقتنا لن تتأثر بأمرٍ عديم الأهمية مثل هذا.

وفي انتظار أن يصل وقت العشاء فرّجني محمد على بيته. كان بيتاً رائعاً، يستحق أن يُنعتَ بالقصر. كانت بعض حجراته، المفروشة على الطريقة الأوروبية، غاية في الثراء والذوق الرفيع.

توقفنا عند حُجرة الطعام. كانت تتكدّس، فوق خزائن ثريّة ومائدة ضخمة غريبة الشكل، خمورٌ رفيعة، وعلب سيجار هافاني كبيرة، وأشكال من الشِّيشة التركية الرائعة، وجِرار وصناديق من الحلوى، ومعلّبات إنجليزية، ومباخر من فضّة كانت تشتعل فتضوع منها رائحة أنسام عطرة ممتعة جداً، وحلوى فخمة جدّاً، وعدد آخر لا نهائي من الأطباق والأشياء التي لا أذكرها الآن.

ولم تكن تلك هي المائدة التي سنجلس إليها.

---

(1) تعبير شائع يقصد به أن المرء يمكن أن يتصرف بكل حرية، دون أي قيود. (المترجم)

في وسط حُجرة الطعام، ومحاطة بوسائد مخمليةٍ برتقاليةِ اللون، تبرز مائدةٌ بلديةٌ، من تلك التي يصنعها فنّانو تطوان، مُتقَنَة النحت، ومثقلة بزخارف عربية ورسوم بألوان زاهية. لم يكن ارتفاع المائدة يتجاوز القدمين، كانت طويلة وضيِّقة. وتقوم الوسائد منها مقام الكراسي.

وفي الأخير، كان يتدلّى، من وسط سقفِ حُجرة الطعام، المثقل بمُقرنصات غريبة الأطوار، مصباحٌ هائلٌ، شديد الإضاءة.

– فكّرتُ –قال محمد وهو يدعوني إلى الجلوس– أنك ومستر بارا قد سئمتما الجلوس على الطريقة الأوروبية، وتفضلان اليوم أن تتناولا الطعام بالطريقة الشرقية. غير أني أسارع بإخباركما أن اللحم مطهو من لدن طبّاخ فرنسي، فأنا لستُ من محبي طبخ أرض البربر المقيت.

ما أن جلسنا حتى انفتح الستار الدمشقيُّ الأحمرُ الكبير الذي كان ينسدل على أحد أبواب حُجرة الطعام، وبرزت ستُّ نساء، ستُّ فتياتٍ جميلات يسطعن أناقة وشباباً.

لا أنوي وصفهنّ في هذا المقام، بل سأكتفي بأن أقول إنهنّ كنّ جميلات ورشيقات، يزيدهنّ فتنة وتألّقاً ما يرتدينه من فساتين حريريةٍ مشغولةٍ بالذهب والفضّة، وشالاتٍ بلون النار، بيضاء وزرقاء، يختمرنها حول رؤوسهنّ.

عند رؤية تلك الغانيات الجميلات ظللتُ مشدوهاً أتأملهنّ في صمت وإعجاب، حتى لكأني في حضور كائنات لا ينتمين إلى كوكبنا، بل إلى كوكب آخر أكثر جمالاً وحظوة.

اقتربت الفتياتُ الرائعاتُ الستّ من محمد، فمن تباعاً بتقبيل كتفه الأيمن باحترام، وهنّ ينبسن بكلمات عربية، لم أتمكن من إدراك معانيها.

ثم شمرن أكمام ملابسهنّ الواسعة فكشفن عن أذرعهنّ الرَّخْصَة، وجلسن؛ ثلاث بجانبنا والثلاث الأخريات قبالتنا.

كانت التي قد جلست فوق الوسادة إلى يميني فتاة سمراء، رشيقة وفاتنة، تنبعث من عينيها نظراتٌ ناريةٌ لا تقل فتكاً عن رموشها الطويلة والحريرية.

- مريم[1] - قال لي محمد وهو يشير إلى الفاتنة السمراء - تعرف من الإسبانية ما يخوِّلها التعبير بها. تحدّث إليها إذاً بلغتك، وعاشت البهجة.

كنت أهمُّ بتوجيه الكلام إلى مريم، عندما نظرَتْ إليّ بتدقيق ثم انطلقت في ضحك متواصل وقويّ إلى درجةٍ أربكتْني. كان واضحاً أن تلك الفتاة تهزأ بي، وأنها قد لاحظت في شخصي أمراً بَدا لها شديدَ السّخافة.

وما لبثَتْ أن انضافت إلى ضحك مريم ضحكاتُ الفتيات الأخريات لتُشَكِّلَ جوقة، وبدأتُ أشعرُ بالغيظ عندما لاحظتُ أن محمداً ومستر بارا كذلك يجاهدان نفسيهما لإخفاء ضحكاتٍ تكاد تنفجر من شفاههما.

وعندما سمحت لي تلك العاصفة البهيجة بالكلام، توجّهتُ بالكلام إلى صاحب الدّار قائلاً:

- أجهلُ إن كنتُ قد ارتكبتُ عن غير قصد أمراً غير لائق. إن كان مثل ذلك قد حصل مني فإني أقدم اعتذاري. غير أني -أضفتُ بلهجة غاضبة- لا أفهم سرَّ هذه الضحكات، وإن لم تكن صادرة عن أفواه نساء لاعتبرتُها إهانة، ويعلم الله أني لم أتعوّد على مثل ذلك.

---

(1) في النص الأصلي «مورَيْما» فرجّحتُ أن يكون الاسم مريم. (المترجم)

– لا تغضب يا صديقي – قال لي محمد بلطف – أؤكد لك أن الفتيات المتهوِّرات ما كنّ ليضحكن بهذه الطريقة لو علمن أن ذلك قد يثير سخطك.

أكّدت مريم بصوت ودود:

– آه. أجل!

– سأخبرك صراحة – استأنف محمد – بما جعل الفتيات يتصرّفن بهذه الصورة. إن البدلات الأوروبية، ولا يغضبك ذلك، تبدو غريبة في أعين النساء المغربيات، يرين أنها ضيقة، وسخيفة إلى درجة أن أكثر الرجال وسامة في العالم سيفقد كل جاذبية إذا ارتدى لباساً بالطريقة الأوروبية. يجب أن نخفي عن نساء أرض البربر المسكينات افتقارهنّ للحضارة.

أما غير ذلك فإني أؤكد لك، وبكلمة شرف مني، أن لا مريم ولا أي واحدة من رفيقاتها، قد استهزأت بشخصك؛ ما أثار ضحكهنّ هو طوق قميصك، وربطة العنق، والمعطف... بكلمة واحدة: بدلتك الأوروبية.

صاحت مريم، وهي تلوِّح بإشارات السلام ثم تضع يديها فوق قلبها:

– أجل، أجل! أنا أقسم لك على ذلك يا مسيحي!

لقد كانت بدلتي الأوروبية غير المريحة تبدو مُضحكة أمام تلك التي كان يلبسها رفيقاي حول المائدة. ونسيتُ أن أقول أنّ مستر بارا، عند دخوله إلى حُجرة الطعام، كان قد نزع ربطة عنقه، وبقي في قميصه، الأمر الذي كان قد أثار بعض الاستغراب لدي. وبذلك كان نائب القنصل، بلباسه المريح، يبدو أقل سخفاً في عيون الفتيات البهيجات.

أردتُ أن أُنْسِيَ الحضورَ ما بدر مني من غضب غير عادل، فاعترفتُ بصوت عالٍ أن معطفي، مثل باقي بدلتي، لا تلقى قبولاً واستحساناً إلا

في نظر الأشخاص الذين اعتادوا على ارتداء بدلاتنا الأوروبية، ورجوتُ محمداً أن يعيرني بعضَ لباسه لأحضر به العَشاء.

صفَّقَ الجزائريُّ الخدومُ عند سماعه طلبي، وقادني بنفسه إلى حُجرة ملاصقة، حيث ارتديتُ، بمساعدة عبدَين من رقيقه، بعضاً من أجمل ملابسه وأغلاها وأكثرها أناقة، لدرجة أني لم أشكّ في أني سأكون بطلَ الحفل، أقصد العشاء الذي كان في انتظارنا.

الفصل السادس

ليلة ماجنة في المغرب - نبتة الجنة - آثار الكيف

أثـارت عـودتي إلـى حُجرة الطعام حماساً حقيقيّاً، حيث أطلقت المغربياتُ زغاريد في ضجّة متنافرة للتعبير عن فرحهنّ، وهبّتْ إليّ مريمُ تحضنني بقوة دون أدنى خجلٍ من حضور سيِّدها.

عدتُ لأتخذ مكاني إلى جانب مريم وقد امتلأتُ زهواً وفخراً بما لقيتُهُ من علامات الرِّضى.

وعندئذ ابتدأ العشاء.

لـن أنشغل بـوصف تفاصيل ذلـك العشـاء، لأنـي وإن حاولـتُ ذلك، فلن أستطيع تعداد كل تلك الأطباق اللذيذة اللانهائية التي لم أعد أتذكرها.

كـان محمد يُشرف بلطف ساحر على أداء مراسيم الضيافة في بيته، ويُكثِرُ من شرب الخمر، مثله مثل تلك الكائنات الجميلة التي كانت تُجَمِّلُ حفل العشاء. ولـم يكن مستر بارا الإنجليزي أقلَّ منهم بهجة وصخباً.

غير أن الضجَّةَ بلغت ذروتها عندما انبرت مريم واقفة وأعلنت أنها سترقص. تناولت إحدى رفيقاتها قيثارة مغربية، وهي آلة ذات ثلاثة أوتار

كثيرة الشبه بآلة الماندولين، وغنّتْ، بعد مقدِّمة موسيقية قصيرة، أغنيةَ حبٍّ بصوت مُؤَثِّرٍ ورائع.

أخذت مريم ترقص على إيقاع تلك الأغنية.

لكن يا له من رقصٍ قرّائي الأعزاء!

بدأ الرقصُ بطيئاً، بطيئاً إلى درجة أن المغربية كانت تهزُّ وركيها وكتفيها بحركة طفيفة لا تكاد تُلحظ، وانتهى رقصاً مندفعاً وماجناً، تبدو بجانبه رقصاتُ الكانكان والتانغو الزنجية مجردَ رقصٍ بريء.

لكن يجب أن أعترف أن المغربية الفاتنة كانت تملكُ في تلك اللحظات جمالاً خارقاً. عيناها النجلاوان القدَّاحتان تزيدان ملامحها سحراً، وتنبعث من شفتيها الطريّتين الأرجوانيتين أنفاسٌ مشتعلة، متقطِّعةٌ، ويتمايلُ قدُّها الرشيق في كل اتجاه، وهي تطفح بالشهوة والدَّلال.

ومن جهتها كانت أغنية الحبّ، التي تصدح بها الفتاةُ، في غاية الانسجام مع الرقص. وأقول أغنية حبّ لأن محمداً الودودَ ترجمها لي بكلمات مختصرة. فالأغنية كانت تتحدّث عن قصة حبّ كما قلتُ، غير أنها قصة فاحشة مليئة بالشهوة والبذاءة.

كانت شفتا الفتاة، الموحيتان بالعذرية، تطلقان كلمات تلك الأغنية، ملتهبة ومهتاجة، قادرة على تأجيج الفكر الأكثر فتوراً وزهداً. كانت تغني بتعبير شديد الرقة والسحر إلى درجة أني، على الرغم من رفضي من صميم أعماق روحي لمضمون تلك الأغنية الرديء، وعدم فهمي جيداً لكل كلماتها، فقد كنتُ أُنصِتُ إليها مفتوناً، لمضمون تلك الأغنية البذيء، وعدم فهمي الجيد لكل كلماتها، فقد كنتُ أُنصتُ إليها في فتون.

عندما أنهَت مريم رقصها، ألقت بنفسها فوق أريكة، منهكة في الظاهر من رقصتها الجنونية التي دامت قرابة الساعة.

في تلك اللحظة تقدَّمَ عبدٌ أسود، يتدلّى من أذنيه خاتمان ضخمان من فضة، ووضع أمام سيِّده ومستر بارا وأمامي ثلاث شيشات تركية جميلة ذوات أفواه من عنبر.

- ستدخِّنُ الكيف[1] - قال لي محمد، بينما كان العبد يضع في شيشتي أوراقاً يابسة، ضيقة وطويلة، لونها ضارب إلى البياض-. يبدو أنك نوعاً ما مشوّش البال، والكيف يملك مزيّةَ إبعادِ الكدر.

هذه النبتة السماوية ستنقلنا إلى عالم مجهول، لكنه يبلغ من الجمال والجاذبية مبلغاً يستحيل معه أن تتخيّل أيَّ شيء يعادله. إن كان الجنس اللطيف يستهويك فسترى نفسك محاطاً بحورياتٍ ساحرات. إن كنتَ تملك طموح السُّلطة، ستكون خلال بعض الوقت مَلِكاً مطلقاً على بلد قويٍّ، لا مثيل له، حيث جميع رعاياكَ يُقدِّسونك. وفي الأخير، إن كنتَ تحبُّ الثروات فستجد نفسك مالك كنوز لا تنفد.

آه، أيها الكيف الإلهي! أنتَ، لا شكّ في ذلك، أجمل نبات الجنة، وبذرتك حملها إلى الأرض ملاكٌ لأجل متعة البشر!

مريم! -أضاف محمد مخاطباً الراقصة المتعَبة، والتي كانت لا تزال مستلقية فوق الأريكة- أَمْسِكي شيشةَ صديقي.

---

(1) الكيف نبتة يزرعها المغاربة، وتوجد منها حقول كبيرة في كل بلاد البربر. تملك تلك النبتة تقريباً خصائص الأفيون والحشيش الذي هو معروف منذ عهد الحروب الصليبية، والذي كانت تستعمله تلك الشخصية الغريبة المسماة «شيخ الجبل»، لكي يجلب لنفسه أكبر عدد من الأتباع.

سارعت الفتاةُ إلى تلبية أمر سيّدها. وكانت الشيشة قد أخذت في الاشتعال، فأسرعتُ إلى وضع مبسم العنبر فوق شفتَيّ، يملؤني فضول لأن أعرف التأثير الذي تُحدِثُهُ تلك النبتةُ المشهورة.

أخذتُ نفَساً من الدخان. كان مذاقُهُ لاذعاً ونافذاً، وأحدثَ فيَّ شعوراً غريباً جدّاً، لا يشبه في شيء كلَّ ما حدّثني عنه محمد. وكان هذا الأخير ومستر بارا يدخّنان بشراهة، ويتذوّقان بلذّة دخان شيشتيهما، تَغمرُهُما نشوةٌ غاية في العذوبة.

وبما أن الكيف تأخّر في أن يُحْدِثَ فيَّ التأثيرَ ذاتَهُ الذي أحدثَهُ فيهما، أبعَدْتُ فوهةَ الشيشة عن شفتيَّ.

- دَخِّنْ يا مسيحي -قالت لي مريم بابتسامة ساحرة-. الكيف هو السعادة.

- أنتِ هل تدخِّنين؟ -سألتُها-.

- أجل -أجابتني بحماسة-، وإذا سمحتَ لي...

بدل أن أجيبها وضعتُ مبسم الشيشة فوق شفتَيها. وخلال بعض الوقت، بَدَتْ مريم غارقة في ملذّاتٍ عظيمة. وازداد جمالها بقدر هائل، وأشكُّ في وجود رسّام قادر على أن ينقل إلى اللوحة ذلك التعبير الخارق الذي كان يكسو وجهها عندئذ.

ولمّا دخّنَت ما فيه الكفاية، أطلقَت تنهيدةَ رضا، وأعادت إليَّ مبسم الشّيشة قائلة:

- الآن جاء دورُكَ. لقد اتّحدَت شفتاي بعنبر مبسم الشيشة، وعندما ستُقَرِّبُهُ من شفتيكَ، ستكون كما لو أنّك تحصل على قبلة من قبلاتي.

أطعتُ الفتاةَ، فقد كانت نظراتُها الملتهِبة تبعث الاضطراب في قلبي الذي لم يَعْتَدْ تلك المشاهد الشهوانية، ومن جديد شربتُ دخانَ الكيف.

لم أتأخّر في تجريب آثار تلك النبتة المُسْكِرة؛ بدأت عيناي تغيمان، يُثقِلُهما نعاسٌ غريبٌ، يكاد يكون مؤلِماً. غير أني كنتُ لا أزالُ أرى وجه مريم الجميل، والتي كان تبدو، في بعض الأحيان، أنها تتأملني بعينين حلوتين، تُغلِّفهما رقّةٌ عذبة، وفي أحيان أخرى ترميني بنظرات مستفزّة ملتهبة، كانت تصيبني بقلقٍ لا يوصف.

كانت الغادة المغربية تبدو لي، وأنا على تلك الحال من شدّة الإثارة، ملاكاً للبراءة، وشيطاناً للخلاعة في الوقت نفسه.

تمكَّنَتْ منِّي رغبةٌ قويّة في الهروب من تلك المرأة، وتهيَّأ لي، في حلمي الغريب والمعذِّبِ، أني أنجح في الوقوف على رجليّ، بعد القيام بمجهودات لا تُحصى. لكني، بعد أن صرت واقفاً لم أستطع أن أتقدّم خطوة واحدة، ولا أن أفكَّ ذلك السحر المخيف الذي كان يمسكُ بي أسيراً أمام المغربية.

كنتُ أريد أن أصرخ، لكن الصوت كان يموت في حنجرتي. كنت، عبثاً، أحاولُ أن أستجدي رحمتَها، فقد كان يستحيل عليَّ التلفّظ ولو بكلمة واحدة.

وفي تلك الأثناء كانت مريم تقترب منّي شيئاً فشيئاً، وهي تَفْتِنُني بنظراتها اللمّاعة. وفي لحظة أحاطتني ذراعاها بقوة؛ وفي لحظة أخرى التحمَت شفتاها بشفتيَّ وهي تضمّني إليها بشدّة جعلت كل مقاومة لديّ تنهار وأستسلم تقريباً غائباً عن الوعي.

ذلك الحلم، ذلك الهذيان، وفق ما عرفتُ فيما بعد، كان يملك شيئاً من الحقيقة. كانت تلك النبتة السماوية، أو نبتة الجنّة كما يسميها محمد، قد أثارت فيَّ تلك الآثار الطبيعية التي يشعر بها كلُّ شخص لم يعتد عليها، عند استعمالها لأول مرة.

مددتُ ذراعيَّ، وأنا مذهول، بل مُخَدَّرٌ، وكُلِّي فَزَعٌ، مثل غريقٍ وحيدٍ لا يجد حوله أيَّ شيء يمكن أن يتعلّق به.

عندما رأتني مريم العطوفة على تلك الحال، أزاحت بسرعة الشيشة المميتة حيث كان الكيف الملعون لا يزال يشتعل، وأخذتني بين ذراعيها، وأَسْنَدَتْني إلى صدرها بدفء حنان الأم التي تسهر على حلم ابنها.

الفصل السابع

الفرّوج - حفلات الزفاف عند المغاربة - عدالةُ أبٍ مرعبة

«المخزني[1] الذي كان تحت تصرّفي، لم يكن خادماً بل حارساً، وكان يُسمّى «الفرّوج»، وهو ما يعني الدِّيك.

كلٌّ من يمارس في المغرب وظيفة رسميّة، يملك مخزنيّاً تحت أوامره، مقابل أجرة مقدارها ثمانون ريالاً كل شهر.

وكان الفرّوج رجلاً بين الخامسة والأربعين والخمسين من عمره، طويل القامة، نحيلاً، وشديد السّمرة. وعلى الرغم من مظهره الفخور المتعجرف، فإنه لم يكن يخيف حتى أطفال العرائش، حيث يجب أن أُنَبِّهَ إلى أن عسكريِّي هذا كان رجلاً مسكيناً بكل معنى الكلمة.

كان كثير الادِّعاء والتهيُّؤات إلى حدٍّ لا يُطاق، يصطنعُ مظهرَ المقاتل القاهر وهو يمتشق في كل لحظة خنجره أو سيفه ذا المقبض المصنوع من القرن.

(1) يستعمل الكاتب تعبير «مورو الملك» ويشرحه في الهامش بالعسكري. والمرجَّح أن المقصود هو العسكري الذي يسمّى في المغرب «مخزني» نسبة إلى المخزن، أي السلطة أو السلطة التابعة للملك، ويُجمع في الدارجة المغربية بـ«مخازنية». (المترجم)

التصق به لقبُ «الفرّوج» بسبب طبعه المهتاج الشّرس، مثله مثل ذلك الحيوان المقاتل الذي يحمل اسمه، ويبحث دائماً عن الشِّجار مع أمثاله.

ذات مرة، كان يتشاجر بشجاعة مع بحّار إنجليزي، والذي كان إلى حدِّ تلك اللحظة صديقاً مقرَّباً منه، فوجَّهَ له ابنُ «ألْبِيُونْ»[1] لكمةً قويّةً هدَمَتْ نصفَ فَكِّه. ومرّة أخرى كان يتعارك مع حمّال في المرفأ، فسحق له هذا الأخير عدداً من أسنانه؛ وأخيراً يمكن القول إنه نادراً ما يمرُّ يوم دون أن يكتسب وجهُهُ آثار صفعة أو لكمة، دلائل مجيدة لمعاركه المتكرِّرة.

كان الفرّوج، فيما يخص المشاجرات، غير قابل للإصلاح، حيث لم ينفع في ردعه لا معاناته الهزائم، ولا توبيخي المتكرر.

قبل أيام قليلة من إعلان إسبانيا الحرب على المغرب، قال لصيَّاد من مدينة طريفة في اللحظة التي كان يغادر فيها العرائش:

- عليك أن ترسم فوق العَلَم الإسبانيّ دجاجتين بدل الأسدين. الإسبانيُّ جبان! أنا، إن أتى الإسبان إلى العرائش سآكل منهم مئتين.

نعتقد أن في إمكاننا أن نضيف أن المسكين لم يأكل أيّ أحد، وبعد أن شاهد الدرسَ الصّعب الذي لقَّنَتْهُ إسبانيا لوطنه أصبح لديه رأيٌ أفضل عنها. فهو اليوم عندما يتكلّم عنها يقول باقتناع عميق:

- أوه! الإسبانيُّ قويٌّ جدّاً!

---

(1) أي الإنجليزي. لفظ كان يُطلق قديماً على بريطانيا. (المترجم)

أعتقد أن الفرّوج كان يمكن أن يضحِّيَ بنفسه من أجلي ولو قُطِّع جسمه أشلاء، فقد كنتُ أعامله جيّداً، وأمنحُهُ بانتظام سيجارات وكؤوس الخمر، التي كان يهواها بقوة.

ذات ليلة كنتُ برفقته، أجلس عند عتبة باب بيتي، عندما سمعنا أصوات المزامير المغربية[1] تصلنا من بعيد، وهي آلةٌ ذات صوتٍ متنافر وحزين.

– ما هذا؟ –سألتهُ–.

– هذا حفل زفاف –أجابني بصرامته المعهودة–.

وفعلاً، بعد وقت وجيز، ظهر موكبُ عُرسٍ كبير في مدخل الشارع الذي يوجد به بيتي.

يشيع بيننا بقوة اعتقادٌ مفادُهُ أن المغاربة يتزوجون من غير أن يعرفوا زوجاتهم، وأقول، خدمة للحقيقة، أن ذلك ليس صحيحاً. عندما يرغب مغربيٌّ في الزواج، فإنه يكون على علم بمَن مِن بين أصحابه يملك بناتٍ أو أخواتٍ في سنّ الزواج. ومن ثَمَّ ينتقي التي يبدو له أنها تجمع صداقاً أكثر[2]، أو تملك صفات رفيعة. ودائماً، لا يعدم الأمر وجود أَمَةٍ تقوم، إلى جانب تسهيل أخبار عن سيِّدتها، بتوفير فرصة للخاطب لكي ينظر إلى وجه المرأة التي اختارها زوجة له.

---

(1) Gaitas moras، والمقصود هي آلة النفخ الموسيقية المعروفة في المغرب، وفي شماله على الخصوص بـ«الغَيْطَة». (المترجم)

(2) يُظهر الكاتب هنا جهله بالعادات المغربية، فالصّداق يأتي به الرجل للمرأة وليس العكس كما هو الحال عند الأوروبيين. (المترجم)

وبذلك تنطلق غيرةٌ كبيرة لدى العروس المغربية التي تكون الأمةُ قد أطلعَتْها على مقاصد زوجها المستقبلي، فتكشفُ، في زقاق ضيِّق، عن وجهها المفعم بحيوية وحمرة لطيفة، ورغبة في الإرضاء.

فإذا اقتنع الخاطبُ خلال ذلك الاختبار السريع، فإنه يطلب الفتاةَ من أبويها أو ممن يقوم مقامهما، ويرسل إليهما هديّة مناسبة لمقامه وغناه.

وبعد تلك الخطوة الأولى، وقبول طلبه، يُكملون المراسيم بكتابة العقد أمام القاضي. ينصُّ العقدُ المكتوبُ على الصداق الذي ستأخذه العروس، والقيمة التي على زوج المستقبل أن يدفعها في حال إذا ما أعادها إلى أهلها، وهو ما يحدث كثيراً.

لن أتعرّضَ للاحتفالات اللانهائية التي تسبق الزواج. وعندما تنتهي تلك الاحتفالاتُ أخيراً، يحتفظ العريس بزوجته في حجرة الزفاف.

لنعدْ، بعد ما ذكرناه، إلى موكب العُرس، الذي كان يعبر شارعي بضجة عظيمة. في المقدِّمة يسير عشرون أو ثلاثون مغربيّاً، يحمل بعضُهم فوانيس كبيرة ملوَّنة، بينما يطلق الآخرون النّارَ من بنادقهم.

ثم يتبعهم ثلاثة شيوخ بلحى طويلة ووجوه كثّةِ الحواجب، يسبق كلَّ واحدٍ منهم حامل لواء، وكانت الألوية في ذلك اليوم من ثوب دمشقيٍّ قرمزيّ.

وتسير خلف الشيوخ موسيقى متنافرة من غيطات وطبول تصمُّ الفضاءَ بضجيجها المجنون.

وبعد الموسيقى كانت تتقدّم العروس داخل قفص كبير بشكل مصباح قديم، محمول فوق متن بغل قويّ. ولا بدَّ أن العروس لم تكن على ما يُرام في تلك اللحظة، داخل تلك المركبة الضيّقة.

وفي آخر الموكب يوجد والدا المحبوسة وأهلها وحشدٌ من الصِّغار الصّائحين الهائجين.

وبما أني كنتُ خالياً، لا أجد ما أفعله، فقد قمتُ من مكاني وتبعتُ، عن بعدٍ، كلَّ تلك الجموع التي توقّفت، بعد مسافة قليلة، عند بيتِ حسن المظهر.

أنزلَ أربعةُ مغاربة أقوياء الصندوقَ بحرصٍ شديد، ثم أدخلوه إلى البيت، الذي انغلق بابُهُ بسرعة في وجه تلك الجموع. وكان هؤلاء، خلال تلك الأثناء، يقفون في صمتٍ عميق. كانت الغيطات قد توقّفت عن العزف، مثلها مثل طلقات البنادق. وكنتُ أجهلُ سببَ ذلك الصمت.

كانت العروس قد دخلت بيتَ زوجها، وكان هذا ينتظرها في غرفة الزفاف كما أسلفنا. فإذا كانت سيرة تلك المرأة طاهرة، فإن زوجها لا يتأخّر في النزول إلى الباب الخارجي. وهناك يطلق رصاصة، وعندئذ تنطلق من الموكب الزغاريد وصيحات الفرح، ومن جديد تصدح الغيطات وطلقات البنادق.

لكن، إذا ظهر الزوج عند عتبة الباب، وبدل أن يطلق الرصاصة، كان ممسِكاً بيد زوجته، وأعادها إلى والدها بوجهٍ قاتمٍ، عندئذ تبتعد كلُّ تلك الجموع متجهِّمين، مطأطئين رؤوسهم، معترفين، بصمتهم الحزين، أن العروس لم تحافظ على حسن سيرتها خلال فترة عزوبتها، وأن زوجها (وسأستعمل هنا مَثَلاً عامِّياً مشهوراً) يرفضها ساخطاً، لأنه لا يريد أن يأخذ القطّ مكان الأرنب.

كنت ألاحظ قلقاً كبيراً يعلو جميعَ الوجوه. كان والد العروس، وأقرباؤها، وأصدقاؤها، ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلق زوجها تلك الرصاصة التي تؤكد الزواج لدى المغاربة وتُجيزُهُ.

لكن الطلقة لا تُدوِّي.

بلغ الصّبرُ منتهاه لدى المنتظِرين، فأخذت تعلو من جمعهم دمدمةٌ ثقيلة.

فجأة، أُشرِعَ بابُ بيتِ العريس على مصراعيه، وبرز منه مغربيٌّ، لا يزال شابّاً، ذو مظهر صارمٍ، يقود امرأة ملفوفة من قدميها إلى رأسها داخل حايك أبيض.

كان ذاك الزوج يرفضُ زوجتَه! وهذه ستعود إذاً إلى حضن أسرتها، وقد فقدت شرفها إلى الأبد.

هرع من الموكب شيخٌ تكاد لحيتُهُ البيضاء تصل حزامه، واقترب من الباب بخفّة تفوقُ عمرَهُ.

كان شحوب وجه ذلك الشيخ، الذي سرعان ما عرفتُ أنه والد العروس، مثل شحوب الجثة الذي يبعث الرُّعبَ والرّأفةَ في الآن عينه.

كانت عينا الأب التّعيس تبدوان وكأنهما تطلقان الشّرر، وأنفُهُ ينفرج بفعل غضب قاهر مكتوم:

- ما الذي يحدثُ سيدي عبد الرحمن؟ -استفسر بصوت قويٍّ سُمِعَ بوضوح في الشارع بأكمله-.

- يحدثُ يا «غْوامُوتْ»[1] المحترَم -أجاب الزوجُ- هو أنَّ ابنتك امرأة غير طاهرة، غير جديرة لا بك ولا بي، لقد لطّخت شيبتَكَ بدناءة! أنا أعيدها إليك!

---

(1) في النص Guamut، ولم أقف على اسم مغربي قريب في نطقه من هذا الاسم، لذلك احتفظتُ به كما ورد في النص. (المترجم)

بعد أن قال ذلك دفع إليه بالمرأة الملفوفة، التي أرسلت أنيناً مكتوماً، واقتربت من والدها. غير أن هذا الأخير ردَّها بكبرياء، فظلّت الشّقيّةُ تتراجع متعثِّرة إلى أن اصطدمت بجدار البيت الذي طُرِدَتْ منه بكلِّ خزي.

– أنا آسف لمصيبتك سيد «غواموثْ»! –قال عبد الرحمن، وهو يلاحظ دمعتين تسيلان بين تجاعيد وجه الشيخ وتختفي بين بياض شعيرات لحيته الكثّة–.

ما لبث الشيخ أن استعاد زمام نفسه، وأرسل زمجرة رهيبة، مثل حيوان متوحش، واستلَّ خنجره من غمدٍ في حزامه، ورفعه بغضبٍ مُفزعٍ ضدّ ابنته.

والخنجر سلاحٌ رهيبٌ وبربريّ: جرحٌ واحدٌ برأسه المسنونِ، المتفرِّعِ إلى قاطعَين فولاذيَّين حادَّين يمتدّان إلى منتصف الحديدة، يكون تقريباً دائماً مميتاً.

أطلقت الجموعُ صرخة رعبٍ، وخرَّت المغربيةُ المسكينةُ فوق ركبتيها أمام قدمي أبيها، تطلب الرّحمةَ، رافعة يديها في توسّلٍ، والدموع تملأ عينيها.

سقط الحايك عن وجهها فظلّت الجموع تتأمّلها بإعجاب. كانت فتاة غاية في الجمال، ذات شعر فاحم، وعينين سوداوين، وأنفٍ كاملٍ، وشفتين مشتعلتين.

كانت تبدو، وهي جاثية فوق ركبتيها تنتفض رعباً، مثل صورة لليأس. أظهر الجميع إزاءها شعوراً بالرحمة، عبّروا عنه بهمهمة مسموعة.

حاول من كان قرب والدها، وعبد الرحمن نفسه، أن يمسكوا ذراعه المرفوعة، لكن سدى.

نزلت تلك الذراع، التي كانت تلوِّحُ بالسلاح المميت بغضب، فوق صدر الفتاة بسرعة، فسقطت المسكينةُ فوق الأرض، وهي ترسل أنيناً عميقاً.

أطلقت الجموع، التي كانت حاضرة ذلك المشهد الرّهيب، صيحة مفزعة، جماعية، لا بدَّ أنها وجدت مئة صدى أليم في قلب «غواموثْ».

لقد كان في نهاية الأمر أباً.

تأمّل ذلك الشيخُ الشّقِيُّ، باستغراب وبلاهة ظاهرة، جسدَ ابنته الهامدِ، ثم رمى الخنجر الدامي، وانسَلَّ هارباً بين الجموع، الذين فسحوا له الطريق باحترام ممزوج بالرعب.

كانت المغربية قد سقطت ضحيّة عدالة والدها البربرية.

وفي اليوم اللاحق للمصيبة الدموية كان الأب قد صار مجنوناً.

الفصل الثامن

خطر الموت

بعد زمن على ذلك الحدث الأليم الذي انتهيتُ من ذكره، حمل إليَّ البريدُ البرّيُّ، الذي يصل من مدينة طنجة كلَّ ثلاثة أيّام، خبراً سعيداً.

كانت الحكومة تنقلني إلى تلك المدينة، وأخيراً سأغادر، وإلى الأبد، قرية العرائش الحزينة، والبشعة، والخاملة.

استعددتُ للسفر في لمح البصر، تغمرني فرحة لا توصف، وانطلقتُ ممتطياً حصاناً هادئاً لكن قويّاً، لا يصيبه التّعبُ ولو قطع عشرين فرسخاً دفعة واحدة، كما أكّد لي مستر بارا.

أصرَّ نائب القنصل الودود ومحمد الجزائري على مرافقتي إلى غاية غابة «فحص الرحام» التي تبعد عن العرائش بفرسخَين.

رافقني إلى طنجة المخزنيُّ الجريءُ تابعي، مضطلعاً تجاه شخصي بالخدمة نفسها التي كان يقوم بها في العرائش، وكان يركب حصاناً عربيّاً جامحاً ملكاً له.

كان متاعي كلُّهُ عبارة عن صندوقَين وكيس كبير وثلاث أو أربع حقائب ليلية، محمولاً فوق متن بغل قويّ مستأجَر، يقوده صاحبه، يهوديٌّ شابٌّ وبهيج اسمه بنزوزة.

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما غادرنا العرائش، سالكين طريق الرمال الملتهب المواجه للمدينة.

كنتُ أسيرُ، جذلان، مفكِّراً في أصدقائي في البعثة الإسبانية، والذين لا بدَّ أنهم في انتظاري في ضواحي مدينة طنجة. وكنتُ أفكر في أن تلك المدينة توفِّر لي بعض التسليات التي لم أتمتّع بها في المدينة التي أغادرها. وكنت أفكر أيضاً في والدي الحبيب، وفي أختي، اللذين ستصلني أخبارهما بوتيرة أكبر.

بعد حوالي ساعة وربع من السفر، توقّفنا في غابة «فحص الرحام» الكثيفة، حيث تناولنا بانشراح، تحت ظلّ الأشجار، طعامَ الفطور، مستهلكين جزءاً من الزّاد الذي كان يحمله الفرّوج.

عندما انتهينا من تناول الفطور ودّعتُ صديقيَّ العزيزين، وقال لي مستر بارا وهو يعانقني:

- لم أنسَ ما كلَّفْتَني به، وما أن تصل الأشياء التي تنتظرها من قادش حتى أرسلها إليك في طنجة.

تلك الأشياء كانت عبارة عن زوجين من السّراويل وصدريتَين كنتُ قد أضعتُهُما في قادش، والتي كانت ستصل في أول فلوكة تأتي من تلك المدينة.

أذكرُ هذا بسبب ما سيعرفه القرّاء بعد قليل.

امتطيتُ الحصانَ من جديد، واستأنفتُ رحلتي، بعد أن ودّعت نائب القنصل والجزائريَّ.

لم يحدث لي شيءٌ مهمٌّ خلال ذلك النّهار، لكن عند نزول المساء، على مقربة من أصيلة، وهي مدينة صغيرة حيث كان الظلام قد حلّ، وعند

مرورنا قريباً من غابة من شجيراتٍ صغيرة، دوت طلقةٌ، وصفّرت رصاصةُ بندقيّةٍ قريباً جدّاً من رأسي.

أطلقَ الفرّوج شتيمة عنيفة بلغة إسبانية سليمة عند سماعه الفرقعةَ، ونخسَ حصانه، منطلقاً مثل البرق نحو الغابة الصغيرة. وسرعان ما رأيتُهُ يعود وهو يمسك بقوة بمغربيٍّ مُمَزَّق الثياب وسيّئ المظهر، عرفتُ من ضفيرته[1] أنه من سكان الريف[2].

- أيها اللصّ! القَرّان[3]! الوغد! أنا أقتلك أنت الآن حالاً!

بعد أن فرغ من كلامه، أخرج المغربيُّ الغاضبُ سيفَهُ، وكان يهمُّ بتنفيذ تهديده دون أن يفكر الرّيفيُّ في الدفاع عن نفسه، عندما تدخّلْتُ في الوقت المناسب راجياً الفرّوج ألا يُلحِقَ أذى بذلك الرجل، لأني قد سامحته من كل قلبي.

نظر إليَّ عسكريِّي مستطلِعاً من قدميَّ إلى رأسي، ثم أغمد سيفه، وقال لي:

- أنتَ تكون وليّاً! وأنا أحبُّ كثيراً أنت[4]!

وعندما رأى الرّيفيُّ أن حياته لم تعد في خطر، أراد أن يقبِّلَ قدميَّ، غير أني لم أسمح له بذلك.

---

(1) يستعمل الريفيّون خصلات شعر مضفور شديد الشبه بضفائر مصارعي الثيران، ينطلق من الهامة وينزل إلى حدود الكتف. ويبقى سائر الرأس حليقاً كليّاً.

(2) يُقصد بالريف منطقة في شمال المغرب حيث الجبال المعروفة بجبال الريف. (المترجم)

(3) كلمة بالدارجة المغربية تعني الجبان والخائن. (المترجم)

(4) يتكلّم المغربيُّ الفرّوج لغة إسبانية بدائية غير سليمة.

عندئذ سألتُه بواسطة الفرّوج لمَ أراد أن يقتلني، وترجم المخزنيّ الإجابة بأنه أطلق عليّ الرصاص لأني مسيحي.

أنبّهُ بالمناسبة إلى أن هذا الحقد المتجذِّر على الأجناس يصل إلى درجة قصوى، إلى حدّ أن هناك مغاربة يقسمون يوميّاً على القضاء على مسيحيٍّ، إذا ما أتيحت لهم فرصة لتحقيق ذلك.

عندما تُتاح لهم الفرصة يفعلون ذلك.

يُقنعهم قدّيسوهم أن من قتل ثلاثاً من المنتمين إلى دين المسيح فسيدخل الجنّة لا محالة.

وهذا يُذكِّرنا بما وقع أيضاً خلال الصراع بين الإسبان والفرنسيين، ذلك الصراع المعروف باسم «حرب الاستقلال»، حيث بشَّرَ كاهنُ إحدى البلدات التي لا أريد أن أسمّيها، مستمعيه مؤكِّداً لهم أن كل من يقتل فرنسيّاً سيفوز بالنعيم، ولو كانت جرائمه بعدد حبّات رمال البحر.

جعلتُ الفرّوج يترك الرّيفيَّ يمضي لحال سبيله بكل حرية، فانطلق المتعصِّبُ المسكين يعدو في تلك الحقول أخفّ من الريح، وما لبث أن اختفى عن الأنظار.

بعد وقت قصير على ذلك دخلتُ مدينة أصيلة، عند انتشار أولى ظلال الظلام فوق الأرض.

أصيلة مدينة ميّتة، لنقل ذلك بوضوح، تمتدُّ فوق أرض رملية قاحلة، تبعد عن البحر بمسافة محترمة.

من دون حياة، ولا تجارة، ولا أي صناعة، لا تملك ممّا يلفت النظرَ سوى بنايات قديمة بعضها ذات قلاع صغيرة والأخرى محصّنة بأسوار، تنتمي إلى عهد الاحتلال البرتغالي لتلك المدينة.

ذهبتُ لأرتاح في بيت يهوديٍّ كان يُدعى «الوكيل الكونيّ»، لأنه كان يمثِّلُ لا أقل ولا أكثر من فرنسا، وإنجلترا، وإسبانيا، وسويسرا، وأستراليا، والبرتغال.

استقبلني ذلك الرجل بحفاوة كبيرة، ولحظات بعد ذلك كان العلم الإسبانيُّ يرفرف فوق سطح البيت، كما لو أني كنتُ شخصية رفيعة.

لم تبدُ لي الحياة أبداً شديدة البهجة، ولا نمتُ نوماً مريحاً بعد أن حمدتُ الله على إنقاذي من رصاصة ذلك الريفيّ المتعصِّب، مثلما حدث لي بعد تعرّضي لذلك الخطر المحقّق الذي لم ينجني منه إلا القدر، لأن المغاربة متفوِّقون في الرّماية.

كان ضميري مرتاحاً، وقلبي شديد الانشراح، والمستقبل يرتسم أمام عينيّ بلونورديٍّ وباسِمٍ مثل ضحى في فصل الربيع.

الفصل التاسع

حيث يظهر سبب دموع بن قصبة
الحلّوف - عدالة أحد الباشوات

لم يحدث لي شيء معيّن خلال مسيري من أصيلة إلى طنجة، التي وصلتها عند غروب اليوم الموالي.

اضطررتُ إلى عبور نهرٍ لا أعرف اسمه، وعانيتُ حرارة أفريقية حقيقة، وفي الأخير، استقبلني أصدقائي من البعثة، الذين خرجوا ينتظرونني مسافة طويلة بعيداً عن المدينة.

اتّجهتُ، مثل المرة السابقة، إلى النّزلِ الفرنسي، وكان لي الحظ أن أسكن في حُجرتي القديمة ذاتها.

بعد خمسة عشر يوماً أو عشرين على وصولي، حضر مغربيٌّ كبير السن، يرتدي جلّابة رثّة وعمامة متّسخة، وقدّمَ لي رسالة بكل احترام وتوقير.

كانت تلك الرسالة من مستر بارا، وتقول ما يلي:

«صديقي العزيز: يسعدني أن تكون بخير وسعيداً في تلك المدينة الجميلة. أرسل إليك بواسطة حامل هذه الرسالة بن قصبة[1] الحلُّوف[2]،

(1) ورد في الأصل Beni Kaasba. (المترجم)

(2) تعني الخنزير في الدارجة المغربية.

وهو شخص يحوز كل ثقتي، زوجَي السراويل والصدريتَين التي كنتَ تنتظرها من قادش، وقد استلمتُها من صاحب الفلوكة الإسبانية نويسترا سينيورا ديل كارمن.

لقد كلّفني بإلحاح صديقنا محمد والجميلة مريم، اللذان تناولتُ معهما طعام العشاء ليلة البارحة، أن أنقل إليك منهما أرقَّ التحيّات. وعندما علمَت مريم أني سأرسل إليك ببعض الثياب، قالت إنها تأسف لكونكَ لا تستطيع أن تتخذ دائماً الزيَّ الجزائريّ، حيث إنك لمَّا ارتديتَ بدلة سيِّدها كنتَ تقريباً جميلاً، بينما تكون في بدلتك الأوروبية قبيحاً جدّاً.

أعتقد أن كبرياءك لن تجرحه هذه الصراحةُ من الجميلة مريم، فسراويلنا ومعاطفنا، بالنسبة إليها، ليست سوى أشياء مضحكة.

استمتع صديقي العزيز، واعلم أني دائماً تحت تصرّفك صديقاً وفيّاً وخادماً مطيعاً.

جورج بارا»

عندما انتهيتُ من قراءة تلك الرسالة، التفتُّ إلى الشيخ المغربي الذي انخرط في البكاء بمرارة، وهو يتلفّظُ بكلماتٍ لا أفهمها.

تكفّل يهوديٌّ من خدم النّزل بأن يترجم لي تلك الكلمات، وقام بذلك وهو بالكاد يغالب الضحك الذي يكاد ينفجر من بين شفتيه.

وها هو سبب حزن بن قصبة، الحلّوف:

خرج الرجل المسكين من العرائش، حاملاً، بعناية، سروالَي وصدريتَي ملفوفين في منديل كبير من ثوب فاسيّ.

قبل خروجه من أصيلة بوقت قصير، قرب دوّارٍ صغير، أوقفهُ بعض المغاربة من معارفه، وسألوه عن سبب سفره.

– أنا ذاهبٌ إلى طنجة –أجاب بن قصبة– لأوصِلَ لمسيحيٍّ بعضَ الثياب من ممتلكاته.

رغب المغاربة في رؤية تلك الملابس، وعلى الرغم منه حلّوا الرباطَ وأخذت أيديهم تتداول السروالَين والصدريتَين، وسط الاهتياج العام الذي سبّبتهُ تفصيلاتها الغريبة.

ولم تتوقّف الأمور عند هذا الحدّ.

فبعد أن سخروا، ما لذَّ لهم، من تلك الثياب، وبعد أن فحصوها بدقة، علَّقوها فوق شجرة، وباتفاق مشترك قرّروا إعدامها.

كان بن قصبة ينتف لحيته من الغضب والألم، لكن المغاربة لم يلقوا إليه بالاً، وأعدّوا بنادقهم، ثم أطلقوا النار على سروالَي وصدريتَي البريئة.

استمرَّ إطلاقُ النار إلى أن لم يتبقَّ من تلك الملابس ولو أدنى قطعة صغيرة.

وعندما ماتت تماماً قال المغاربة لبن قصبة:

– اذهب إلى طنجة وقُلْ للمسيحي إنّنا سنفعل به قريباً ما فعلناه بسراويله.

أخذ الشيخ المسكين يذرف الدموع، لأنه ظنَّ أني سأشكُّ في صدقهِ، وأني سأجعله بسهولة يتعرّضُ للعقاب.

بعد أن وقفتُ على تلك الوقائع، فعلتُ ما كان في إمكاني لتهدئته، وكنت تقريباً قد تمكّنتُ من ذلك إذ دخل يزورني بيدرو أورتيز دي زوغاستي، ملحقٌ ديبلوماسيٌّ في بعثتنا.

عندما علم بإعدام ملابسي أخذ الأمر مأخذ جدٍّ، وكنتُ أستبعدُ ذلك كثيراً، وقال لي:

– قمْ بكتابة تقرير حالاً، تُخبِرُ فيه البعثةَ بكل ما جرى.

- لكن...

- افعلْ ما أقوله لك -أضاف- فالسيّدُ وزيرُنا المفوَّض لن ينظر بعين الرضا إلى امتناعك عن القيام بهذه الخطوة.

لم أعلِّقْ على ذلك وحرّرتُ التقرير.

قال لي الملحق الديبلوماسي، بعد قراءة التقرير، إنه من الضروري أن أحدِّدَ ما كلَّفني السروالان والصدريتان من قيمة مادية. سلَّمتُهُ عندئذ لائحة حساب الخيّاط التي أرفقها مستر بارا مع رسالته، فودَّعني وهو يدعوني إلى حفلة شاي كان سيقيمها لأصحابه تلك الليلة في حجرته بالبعثة.

سألني الحلُّوف بواسطة اليهودي، وقد ازداد قلقُهُ بسبب وصول الديبلوماسي، إن كان بإمكانه أن ينصرف، وما أن أجبتُهُ موافقاً حتى انسلَّ بسرعة تشي بمخاوفه.

وما لبث التقرير الذي أرسلتُهُ إلى البعثة أن خلق أثراً عجيباً.

وُضِعَ ذلك التقريرُ بين يدي القائم بأعمال السلطان، وهو شخصية يقيم بطنجة، وهذا الأخير أرسله بدوره مُرفَقاً برسالة مستعجلة مختومة بالشمع الأخضر تحمل طابع سليمان الكبير، موجّهة إلى باشا مدينة العرائش، الذي يقع ضمن مجاله القضائي الدوّار حيث أُعدِمَتْ سراويلي.

توصَّل الباشا بتلك الوثائق وكأنما قد انفتحت أمامه أبوابُ السماء، فأصدر الأوامر المناسبة كي تتحقّق العدالةُ.

كُلِّفَ عشرون من العسكريين المخزنيين[1] بتنفيذ تلك الأوامر، فانطلقوا إلى الدوّار. وعندما وصل هؤلاء إلى الدوّار، لم يكلِّفوا أنفسهم عناء تقصّي المجرمين، بل رأوا أن الحلَّ الأسرع والأنسب هو أن يُدرجوا

(1) نسبة إلى المخزن التي تعني في المغرب السلطة. (المترجم)

جميع السكّان في العقوبة التي فرضها الباشا، ومن ثَمَّ حجزوا القطعان والخيول ومعدّات أخرى من ممتلكات سكّان الدوّار الأشقياء.

لم يَسلم شيء، أيُّ شيء، من سَلْبِهِمْ، وبعد أن فرغ أولئك الرجال من النهب لحسابهم الخاص كذلك، قفلوا إلى العرائش، يَسُوقون أمامهم قطعاناً من البقر والغنم، وعدداً كبيراً من أجود الخيول.

عندما ابتعد أولئك النّاهبون عن الدوّار بمسافة كافية، هرع السكّان، وقد أصبحوا لا يملكون شيئاً، إلى إضرام النار في أكواخهم، وهجروا البلاد حاملين زوجاتهم وأبناءهم، الممتلكات الوحيدة التي تبقّت لهم.

هكذا هي العدالة في المغرب!

يمارسُ الباشوات، وهم سادةٌ أكثر استبداداً وبغضاً من البارونات الإقطاعيين من ذوي الحكم المطلق، في مقاطعاتهم كلَّ أنواع القضاء، المدني منه والعسكري، دون أن يكبح أحدٌ تجاوزاتهم.

والعسكريّون المخزنيّون هم الوحيدون المكلّفون بتنفيذ أوامرهم. فالعسكريُّ المخزنيُّ يثير الرعب في بلاد البربر، لدرجة أن أدوات الاستبداد هؤلاء، يثقون دائماً في أنهم يثيرون أينما حلّوا، ليس المحبّة، بل الاحترام العميق والرعب الذي يبرِّرُه سلوكهم بقوّة.

يضطلع العسكريّون المخزنيون بجباية الضرائب من جميع بلدات الإمبراطورية وقبائلها. وإذا وجدوا في جهةٍ ما مقاومة أو إهمالاً عند الأداء، باعوا باستعجال كل ما يملكه السكان المغاربة. وإذا أحسّوا بأدنى علامات التمرّد، يقطعون بعض الرؤوس، ويضعونها في كيسٍ ليثبتوا لأسيادهم مدى تفانيهم في خدمتهم.

وبعد الانتهاء من كل ذلك يغادرون البلدة، التي يخلِّفونها مرعوبة بأفعالهم الرّهيبة.

وعساكر السلطان هؤلاء، أو المخازنية، هم الذين ينقلون أوامر السلطان السرّية، وعندما يدخلون على باشا بكتاب السلطان، يرون الطاغية يرتعد في حضرتهم، ويظل يرتعش على الرغم منه، إلى أن يَطَّلع على مضمون الأمر السّامي للإمبراطور، والذي يكون في بعض الأحيان حكماً بالإعدام.

لا يتميَّزُ الرُّيَّاس[1] والقُوَّاد عن الجنود بأدنى شارة، ولا يظهر تميُّزُ القائد عن الجندي البسيط إلا نفاسة السلاح، أو تفوّق أصالة الخيول.

لا يزال التكتيك الحربيّ متخلِّفاً عند المغاربة. يمكن للجنديّ في المدن المغربية أن يكون خيّاطاً أو إسكافيّاً، حيث إن الحكومة غير ملزمة، في زمن السّلم، بأن تؤدِّيَ له أيَّ جراية، أو «المونة»[2] كما يسمّونها.

لا يُستغرَبُ إذاً من هؤلاء الجنود، وهم على هذا الحال من سوء التنظيم، وانعدام الرّاتب الدّائم لتموينهم، أن يتعاطوا السّلب والنّهب. فجنود السلطان أو «المخازنية» يُعتبرون في بلاد البربر بمثابة وباء وكارثة حقيقيَّين، وخصوصاً بالنسبة إلى السكان البسطاء.

أدّى باشا العرائش، بكل تدقيق، ثمن سروالَي وصدريتَي، لكن في المقابل دمَّرَ، وربما إلى الأبد، عدداً لا يحصى من الأُسر.

آه! كم أتألّمُ لكوني كنتُ السبب البريء لحادث مروِّع مثل هذا.

(1) بالدارجة المغربية في النص، والمقصود: رؤساء الجيش. (المترجم)

(2) بالعربية في النص بالحروف اللاتينية: Mona. (المترجم)

الفصل العاشر

جرائم امرأة عاشقة - العقاب البربريُّ الذي فُرِضَ عليها - امرأة الخشب

لـم أكـن لأمكـثَ زمناً طويـلاً في مدينة طنجة حيث كـان عليَّ أن أغادرها مرة أخرى.

كانت ستتحقّق أغلى رغباتي.

كنتُ سأشارك في السفارة الإسبانية، التي كان من بين مهامِّها أن تختم مع إمبراطور المغرب اتفاقيةَ سلامٍ بين ذلك البلد وإسبانيا.

وقبل أن أعرض لتلك الرحلة إلى «مدينة النُّعاس»، أستسمح القرّاء في أن أحكي واقعة رهيبة حدثت بطنجة في تلك الفترة.

كان مغربيٌّ غنيٌّ، شابٌّ ومليحٌ، يعيش مع ثلاث زوجات شرعيّات وأَمَتَيْن اثنتين، إحداهما كانت زنجيّة.

وكانت تلك الزنجية، التي نَمَّتْ فيها الشهواتُ الأفريقيّةُ عشقاً بلا حدود لسيّدها، تشعر بالغيرة من النساء الأخريات، خصوصاً من إحداهنَّ التي كانت أثيرة لدى سيِّدها على الرغم من أنها لم تكن الأجمل.

وصل يومٌ طغت فيه تلك الغيرةُ كلِّياً، وأخذت تستولي على روحها فكرة الجريمة المروِّعة.

في كل بلاد البربر يُباعُ الزرنيخ علانية بكمّيات كبيرة، حيث إن النساء يصنعن منه، مُضافاً إلى مكوِّنات أخرى، عجينة تصلح لتبييض الجلد.

تمكّنت الأَمَـةُ من الحصول على حصّة مهمّة من ذلك السمِّ المرعب، واغتنمت فرصة غياب سيِّدها، ووضعته في الطعام الموجّه للأسرة جميعها.

كانت النتيجة مرعبة!

أخذ الجميع يشعرون بآلام فظيعة، ويتلوُّون مثل حيّاتٍ مكلومةٍ وهم يطلقون صرخات حادّة من شأنها أن تُقلق المزاجَ الأكثر رزانة.

وكانت السوداء بدورها تصرخ وتشتكي الموتَ، فقد تناولت قليلاً من الطعام المسموم كي لا تتطلَّع إليها الظنون.

وعندما أسرع إلى نجدتهم طبيبٌ أوروبيٌّ يقيم في المدينة كان الأوان قد فات: كل الأشخاص الذين تناولوا الأطعمة المسمومة، باستثناء السوداء، كانوا يحتضرون وسط آلامٍ فظيعة، دون أن يُفلح أيُّ دواء في التخفيف من معاناتهم.

هلكوا بعد وقت قصير.

وعندما وصل المغربيُّ إلى بيته، كان هذا الأخير شبيهاً بمقبرة.

زوجاته الشرعيات الثلاث، وإحدى الأمتين، وخادمان، وحتى طفل بريء هو ابنه، كلهم كانوا ممدَّدين بلا حياة. وحدها الأمة السوداء كانت على قيد الحياة، ومريضة جدّاً.

كاد المغربيُّ يفقد صوابه من شدّة الألم، خصوصاً عندما أخبره الطبيب أن الجميع ماتوا من التسمُّم.

في البداية لم يفكر في البحث عن القاتل الحقير الذي دمَّرَ أسرة بكاملها، غير أن صديقاً حميماً له، رجلٌ حصيفٌ وذو شخصية قويّة، قال له:

- بدل أن تبكي سدى مثل امرأة، عليك أن تفكِّر في الانتقام من القاتل. كل أسرتك قد ماتت! واجبك أنت أن تكتشف من استأصلها وتسلّمه إلى العدالة. هذا ما سيعزِّيك بعض الشيء.

القاتل! وكيف السبيل إلى معرفته؟

كل التحريّات الدقيقة لم تُفضِ إلى النتيجة المرجوّة، وظلّت الجرائم الفظيعة يكتنفها غموض كبير.

لم يتطرّق الشكُّ بعد إلى الأمة السوداء. ألم تكن مريضة جّداً؟ ألم تتعرّض بدورها للتسميم؟

ازداد مرضُ الأمة خطراً إلى درجة أنها لم تكن قادرة على الإجابة عن الأسئلة الموجَّهة إليها لتمحيص تلك الجرائم التي أصابت السكان جميعهم بالرعب. واستولت عليها حمّى قوية وخطيرة شرعت تقضي بسرعة على بنية جسمها القوي.

كان المغربيُّ التعيس يعتني بها باهتمام كبير. كانت الوحيدة الباقية من أسرته الغالية! وعلى شفا الهلاك، وفي لحظة هذيان، نطقت الأمةُ كلمة «السمّ». ثم كشفت شيئاً فشيئاً، بعبارات متقطِّعة، جريمتَها.

لم يعد المغربيُّ، الذي كان ينصت إليها بذهول، يشكُّ في كون تلك الشقيّة كانت المسؤولة الوحيدة عن تلك الفاجعة. عندئذ شعر ذلك الرجل برغبة جامحة في الانتقام، وللحظة كاد أن يخنق المرأة المذنبة. ولم يستطع أن يُلجمَ غضبه إلا بجهد جهيد.

عندما تمكّن من ذلك، بذل الرجلُ مزيداً من العناية بالمريضة، وأحضر جميع أطباء المدينة، إلى أن استطاع في الأخير أن ينتزعها من مخالب الموت.

وما أن صارت السوداء خارج الخطر حتى واجهها بجرائمها، وأخبرها أن عليها أن تستعدَّ لتلقّي عقاب رهيب.

لم تطلب الأَمة عفواً، وبعد أن اعترفت للمغربيِّ بعشقها له، طلبت منه أن يخلِّصها من حياتها البئيسة، لأن الحياة، بالنسبة إليها، كريهة، غير محتمَلة، من غير حبّه.

- ليس أنا -ردَّ عليها المغربيُّ باحتقار كبير-، العدالة من سيتكفّلُ بذلك.

وبالفعل، حكم عليها الباشا، بعد أن تأكّد له ذنبُها في تلك الجرائم البشعة، أن تتعرّض لإحدى أفظع العقوبات التي يُحكم بها على الزانيات.

وُضعت، عارية تماماً، داخل كيس كبير من نسيجٍ قويٍّ وخشن، حيث كانوا قد أقفلوا مسبقاً على قرد، وعدد من الأفاعي، وبعض القطط البريّة. وكان الكيسُ مربوطاً بقوة في أعلاه إلى قطعٍ كبيرة من الفلين ليظلَّ طافياً فوق الماء. وبعد أن أُغلق مبسم الكيس على ذلك الحشد من الأفاعي والهوامِّ الضّارية، أُلقي به في البحر في حضور عدد كبير من الناس.

أخذ الكيسُ يطفو ويبتعد عن السّاحل، يحمله الموجُ الذي كان في تلك اللحظات ينسحب ببطء من الشاطئ بسبب انحسار المدِّ.

وظلَّ رأسُ السوداء، المحبوسة بذلك الشكل، خارج الماء، يطفو بفضل قطع الفلّين المذكورة. ومثلما يُفترضُ، يلجأ الأفاعي، والقرد، والقطط البرّيّةُ إلى حيث يطفو الرأس.

كانت السوداء تنتفض بجهود رهيبة ويائسة. كان من السهل تصوّر الصراع الفظيع الذي كانت تقوم به ضدّ تلك الحيوانات المقرفة المتكدِّسة حول رأسها.

ظلَّ الكيسُ يبتعد شيئاً فشيئاً عن السّاحل إلى أن كاد يختفي عن الأنظار، وابتعدتُ أنا مرعوباً من ذلك المكان، مباركاً أفضال الحضارة على الإنسان.

وبما أنني قد ذكرتُ إحدى العقوبات التي تتعرّضُ لها المغربيات الزانيات في المغرب، فلن أُنهيَ هذا الفصل دون أن أشير إلى عذاب آخر فظيع، يطبَّقُ بانتظام على كل تلك اللواتي يُخللن بواجبهنَّ.

عندما يُثبَتُ لامرأة متزوجة أنها مذنبة، ويكون زوجها المُهان غير قادر على أن يأخذ حقَّهُ بنفسه، يفوِّضُ الباشا، أو في غيابه، القاضي الذي يصدر حكمه عليها، دون أيِّ شكل من أشكال المحاكمة، ودون أن يكون لها الحقّ في الاستئناف.

وعندما يُحكم عليها، يتكلّفُ «الجزّار»[1]، رفقة بعض المخازنية، بأخذها إلى مكان قريب من البلدة التي ارتكبت فيها جنايتَها. وهناك يُعَرُّونها تماماً من غير أن يلقوا بالاً إلى الحشمة أو إلى جنسها.

ثم يضعونها فوق ألواحٍ تُمثِّلُ بصورة تقريبية جسدَ الإنسان، وبعد أن يصلبوا ذراعيها، يثبِّتون بالمسامير فوقها ألواحاً أخرى، إلى أن يظلَّ جسمُها محصوراً بدقة بين الدفّتين.

---

(1) وردت الكلمة بهذا الشكل: El guesar وشرحها الكاتب في الهامش بأنها تعني في الدارجة المغربية: الجلّاد. (المترجم)

بعد أن يفرغوا من ذلك، يدهنون وجهها بالعسل، ويوقفونها مُعرَّضاً وجهها للشمس، يتركونها دون أيِّ رحمة، بعد أن تكون التعيسة قد تلقّت طوفاناً من الحجارة يرجمها بها بعض الأطفال القساة الخبثاء.

ويدوم ذلك العذابُ الجهنّميُّ زمناً طويلاً. وتموت البئيسة التي تعانيه محروقة بشمس ملتهبة، من غير أن تتمكّن من القيام بأدنى حركة داخل الألواح التي تُغطِّي كلَّ جسدها، حيث تثقبها المسامير المدقوقة في الألواح إن حاولت ذلك.

يغطّي الذبابُ، وذبابُ الخيل، وسربٌ من الحشرات التي يجلبها العسلُ بأعداد كبيرة، وجهَها، الذي لا يلبث أن يُلتهَمَ بشكل كامل، وتحتضر المرأة البئيسة في النهاية وسط كل تلك العذابات المرعبة، التي يجب أن تُضاف إليها المعاناة اللامتناهية الناتجة عن الجوع والعطش.

كان ذلك العذابُ يُسمَّى «عقاب العلبة»، والمرأة المحبوسة داخلها «امرأة الخشب».

الفصل الحادي عشر

احتفالات المولد -
أراجوز من بلاد البربر

قبل سفرنا إلى بلاط السلطان بأيام قليلة، قال لي ممثل إسبانيا القدير، السيد ميري إي كولون:

- أنتَ لا تزال جديداً في هذا البلد، لذلك لن يكون من نافل القول أن أحذِّركَ من أن يوم غد يمثِّلُ خطراً بالنسبة إلى المسيحيين الذين يغامرون بالخروج إلى شوارع هذه المدينة.

غداً يحتفل المغاربة بعيد المولد، سيفد على المدينة الريفيُّون[1]، ومغاربة الجبال، وعدد هائلٌ من الطوائف الدينية المتطرّفة والهمجية، وأكثرها فظاعة طائفة «عيساوة»، سيدخلون المدينة بأعداد كبيرة مدجّجين ببنادقهم وخناجرهم التي لا يفارقونها أبداً.

إذاً، ستفعل خيراً غداً بلزوم بيتك، فأنا أيضاً سأفعل الشيء نفسه، وسأتكفّلُ بأن يقوم بقيّة أفراد السفارة بالأمر ذاته.

تركَت تلك النصيحةُ الحكيمةُ أثراً قويّاً في نفسي؛ لكن ما أن أسفر صبح اليوم التالي حتى تغلّب الفضول لديَّ على الخوف، ووجدتني أنطلقُ إلى الشارع متلهِّفاً لحضور احتفال المولد.

---

(1) أي سكّان منطقة الريف في المغرب. (المترجم)

كان صبحاً في أقصى درجات الجمال والهدوء.

يجب أن نقول إن المسافة من النّزل الذي كنت أقيم فيه إلى «السوق الكبير»[1]، الشريان الرئيس في المدينة، ليست طويلة.

كان مغاربة البادية يجوبون المدينة بأعداد متزايدة. وعندما وصلتُ إلى «السوق الكبير» وجدتُ خمسين أو ستين مغربيّاً من سكان الريف يُحاكون فيما بينهم قتالاً وحشيّاً. استولوا على مداخل الشوارع ومنها يطلقون نيران بنادقهم. تتأجّجُ دماؤهم الأفريقية إلى درجة أنهم يكادون يحوِّلون ذلك اللعبَ الخطيرَ إلى حقيقة. وأقول خطيراً، لأن بارودة محشوّة بطريقة بدائية، ترشُقُ بفرقعة مخيفة، فتجرحُ من يوجد قربها من الأشخاص. لكن على الرغم من ذلك فإن المشهد كان مثيراً من شأنه أن يزعزع المزاج الأكثر ثباتاً.

كان أولئك الرجال، بثيابهم الرثّة، ووجوههم المحروقة بالشمس، يبدون أكثر إفزاعاً بفعل الدخان والبارود الذي زادهم سواداً، والعرقِ المنتشرِ فوق جباههم العابسة والمتجهِّمة.

قريباً من المكان من حيث كنتُ أشاهد القتال، كانت توجد موسيقى متنافرة، متكونة من غيطة[2]، وطبل، وآلة موسيقية أخرى كثيرة الشبه بآلة «الرّابِل»[3].

---

(1) سوق المؤن.

(2) مزمار مغربي، أشير إليه من قبل. (المترجم)

(3) آلة وترية، تُدعك بقوس، وتملك وتراً واحداً أو اثنين أو ثلاثة أوتار، تتخذ في الغالب شكل رقم 8. والمقصود هنا آلة الربابة. (المترجم)

تلقّى المغاربةُ الشّرر تقريباً مباشرة، وكانوا يتصايحون ويرمون بعضهم بعضاً بألفاظ السّباب، وقد انقسموا إلى معسكرَين، منخرطَين في معركة حقيقية هذه المرة.

وخَطَرَ لأحد المتعاركين أن يرمي في الهواء بجلبابه، وهو ضربٌ من الرداء الواسع بغطاء رأس، وأن يُطلق عليه النّار. وعندئذ ارتفع الصّياح الجهنّمي، واحترق الجلبابُ في لحظات قليلة بشكل كامل.

كان المقاتلون، ويمكننا تقريباً أن نطلق عليهم هذا الاسم، يزدادون غضباً، وينقضّون، ويقفزون عالياً، وهم يحرّكون بألف طريقة أجسامهم الرشيقة والصلبة. أتت عليَّ لحظاتٌ كنت فيها على وشك أن أغادر ذلك المكان، فقد كان المشهد الذي يقدّمه أولئك الرجال نصف المتوحشين، مشهداً مهيباً وهمجيّاً.

وصلت أصواتٌ رهيبة جديدة، آتية من زقاق يُفضي إلى «السوق الكبير»، وما لبثت أن ظهرت أعداد لا نهائية من المغاربة، يُلوِّحون ويَعْدون بغير انتظام. يتقدّمهم زنجيٌّ عملاق القامة.

وكان ذلك الرجل، الذي كان وجهه الرهيبُ والكريهُ يحمل، في أنحاء متعددة، آثار حرقٍ عميقة، يمسك في يديه أفعى حيّة، تتلوّى بيأسٍ، وهي تقوم بمجهودات غير مجدية للتخلّص من اليدين اللتين تمسكان بها.

كان الزنجيُّ يُدني، بين الفينة والأخرى، الأفعى من فمه، ويفتحه بقوة متظاهراً بالرغبة في التهامها.

وكان الزاحف المقرفُ، الضخمُ، يُقرِّبُ بانتظام لسانه الطويل من صدر الزنجيّ العاري، ويعضّه بهياج؛ لكن من المعلوم أنه كان منزوع السّم، أو أن الحيوان الغاضب ينتمي إلى نوع الحيّات غير المؤذية.

يحيط بالزنجيِّ ستة أو سبعة صبيان يضربون أطباقاً من نحاس بعضها ببعض، وكان يرمي بأفعاه في الهواء، ويعود لالتقاطها بكلتا يديه، ببراعة مذهلة.

وقف الزنجيُّ قريباً من المكان الذي كنتُ أوجد فيه، وتجمَّعَ الناس من حوله. ولم أشكّ في كوني سأحضر مشهداً رهيباً ومقرفاً.

وفعلاً، لم أكن مخطئاً.

كان الصبيان، أصحابُ الأطباق النحاسية، يمرّون، مرّة وأخرى، أمام الحشد وهم يجمعون في سلال من قشّ وابلاً من الفلوس المغربية، من تلك التي تكثر اليوم بمدريد.

اقترب أحد أولئك الصبيان مني، فناولتُهُ قطعة نقد فضّية. وعندما ألقى الزنجيُّ نظرة على المال الذي جمعه مساعدوه، شرع يرقص على إيقاع الأطباق النحاسية المذكورة.

بدأ رقصُهُ بطيئاً ورزيناً، ثم صار يتسارع، كل لحظة، أكثر فأكثر. وكان ذلك الرقص يشبه كثيراً رقصات الدراويش «الدوّارين» في تركيا. ومن غير أن يغادر ولو للحظة أفعاهُ، أدنى ذلك الرجلُ المُقرِفُ، من جديد، الأفعى منه، لكنّه هذه المرّة انتزع بأسنانه البيضاء الحادّة قطعة عظيمة من لحمها.

لا أتذكّرُ أني حضرتُ في حياتي كلها مشهداً أشدّ قرفاً.

كانت الأفعى تُصَفِّرُ وتتلوّى بقوّة، بينما يبدو الزنجيُّ متلذِّذاً بطعم لحمها اليابس والناصع.

وكلما ازداد هيجان الحيوان، كلما عضّت معذِّبَها في الصدر والوجه واليدين، دون أن تُفلح في التحرّر من قبضة الزنجيِّ الكريه، الذي ما فتئ أن التهمَ لحم الأفعى بشكل كامل.

وعندما لم يتبقَّ من الأفعى الميّتة سوى رأسها وبعض بقايا جسمها اللاصقة بالشوكة أو بالقناة الهضمية، ألقى الزنجيُّ بتلك البقايا المقرفة على الجموع.

بعد ذلك، أخذ من يد أحد الصّبيان قذيفةَ مدفعٍ صغيرة، وزنُها ثلاثون رطلاً على الأقل، فاتّسعت الدّائرةُ من حوله في رمشة عين.

أيّ بربريّة جديدة أو مشهد كريه سيقدِّمه للحاضرين ذلك الرجل المتوحّش؟

لم تتأخّر معرفتي بذلك.

فبعد أن أطلقَ صرخة حادّة وطويلة، رمى بالقذيفة في الهواء، واتّخذ مكاناً مناسباً ليتلقّاها فوق رأسه، الذي فاتني أن أقول إنه كان عارياً تماماً.

انفجر رأس الرّجل بشكل مريع. وما لبثت الدّماء أن سالَت بغزارة فوق وجهه، وصدره، وفوق كتفيه؛ غير أنه لم يقلق لأمر بسيط كهذا، وانحنى نحو الأرض وأخذ قبضة من التراب ووضعها فوق جرحه.

ثم استعدّ لأداء ألاعيب جديدة، وقد ازداد حماسه بفضل تصفيق الجموع.

أما أنا فقد انسحبتُ مفزوعاً، مُقسِماً ألا أعود، ما حييتُ، إلى حضور مشهدٍ لأحد الحُواة أو المشعوذين المغاربة.

الفصل الثاني عشر

تكملة ما سبق - الخِتان - عيساوة - سباق الخيول

ما أن سرتُ بضعَ خطواتٍ مبتعداً عن «السوق الكبير»، حتى سمعتُ فرقعاتٍ يتردَّدُ صوتُها مُصمَتاً وفخماً. كانت تلك أصوات مدافع القصبة تدوي معلنة خروج الباشا.

كانت تلك الشخصية ستمُرُّ، لا محالة، من المكان نفسه، لحضور ختان أطفال طنجة أو تعميدهم بالدّم، الذي كان سيُحتَفَلُ به في المسجد الرئيس.

ومرة أخرى أوقَفَ الفضولُ خطاي. وبما أن القصبة ليست بعيدة كثيراً عن «السوق الكبير»، فلم ألبث كثيراً أن شاهدتُ حشود الناس يتدافعون لكي يفسحوا الطريق أمام عدد من الجنود، يركبون الخيول، ويضربون بعرض السيف من ظلَّ في متناولهم.

كان أولئك الناس المساكين، الذين يوجد بينهم عدد كبير من اليهود والأطفال، يكادون يدغمون في جدران البيوت، ويتزاحمون ما أمكن فيما بينهم، ليتركوا المجال حرّاً أمام ذلك الطاغية المتحكّم في النفوس والممتلكات.

وكان هذا الأخير يتقدّم ببطء. يتقدّمه، بمسافة لا بأس بها، مغربيّان راجلين، يعدِّدان بصوت مرتفع خصاله ومناقِبَه. وبعدهما أعلامٌ متعدِّدة الألوان، من بينها الأخضر كذلك، وهو لونٌ لا يحقُّ إلا لأحفاد محمد، تُرفرف في الريح، تكاد تحجب أثوابُها الفضفاضةُ حامليها.

وتتقدّمُ الباشا موسيقى غليظة، متنافرة، مثلها كمثل كل موسيقى بلاد البربر. وكان هذا الأخير يسير، راكباً حصاناً جميل المنظر، مُحاطاً بالشخصيات المهمّة في المدينة، وقد أحنى رأسه فوق صدره في هيئة المُتأمِّل.

وفي ذيل الموكب عددٌ من أفراد الحرس الأسود، المملوك للسلطان وحده، والذين وصلوا المدينة في اليوم السّابق من أجل مهمّة خطيرة، وفق ما أخبرني صديقٌ مغربيٌّ.

كان الباشا رجلاً مهيبَ المظهر، شديد السّمرة. تكاد لحيتهُ السوداء الطويلة تلامس حزامه.

كل تلك الجموع سارت نحو المسجد مثلما سبق أن قلت.

ويبدو لي من نافلة القول أن أصرِّح أني، وكل المسيحيين، كنّا ممنوعين من دخول المعبد المحمدي. غير أن الترجمان المنصور بنّاصر، حكى لي فيما بعد كيف تجري شعائرُ الختان، التي لا أحبُّ أن أحرم القارئ من معرفتها.

كانت تلك الشعائر تسير بالصيغة الآتية:

يجلسُ، كلٌّ في المكان المناسب لمرتبته، العلماءُ، والأولياءُ، والفقهاءُ، وغيرهم من الشخصيات الذين يحضرون الشعائر إما عن

واجب وإما عن رغبة. ويقدِّمُ الوالدان أو الأهلُ الطفلَ[1] الذي سيُختَنُ للفقير المكلَّف بتنفيذ العملية الأليمة.

ولكيلا يقوم الطفل بأيِّ مقاومة عديمة الجدوى، أو بالأحرى من أجل إلهائه، يقدِّمون له الحلويات والألعاب، في الوقت الذي يقطعون بوساطة مقصٍّ حادٍّ ذلك الجزءَ من جسده، الذي يجب أن يتطهّر منه كل مؤمن، وفق شريعة محمد.

يندفع الطفل في صراخ حادٍّ وبكاء مُرٍّ، وعندئذ يضعون فوق الجرح مسحوقاً مُجَفِّفاً ونصف بيضة دجاجة طريّة، للتخفيف من حدّة الآلام القويّة التي يعاني منها، وليندمل الجرحُ.

وكما أوضحنا، فإن تلك الشعائر الوحشية، والتي يجب أن تُسمّى صحّية بدل دينية، يذهبُ ضحيّة لها غيرُ قليل من الأطفال؛ حيث لا يستطيع بعضهم بسبب بنيته الضعيفة، وبعضهم نتيجة الصيغة البربرية التي تتمُّ بها عملية الختان، أن يصمدوا لتلك العملية فيهلكون خلال أيّامٍ قليلة.

وما أن يفرغوا من ختان طفلٍ حتّى يُخرجوه من المسجد، ويسلِّموه إلى أُمِّهِ، التي تتلقّاه بين ذراعيها، شاحباً، يكاد يكون هامداً، وتُمطره بالقبلات والعناق.

ولم يكن التعميد الدموي قد انتهى، وكنتُ قد دخلتُ إلى «دار إسبانيا»، مقرّ ممثل إسبانيا بالمغرب، عندما دعاني أحد شباب المترجمين

(1) لا تتجاوز أعمار أولئك الأطفال سبع أو ثماني سنوات، وعلى الرغم من هذا السن الغضّ يسقط الكثير منهم ضحايا التعميد الدموي، وذلك بسبب قلة العناية والاحتياط التي تتم بهما تلك العملية الخطيرة.

الجدد في التمثيلية الإسبانية إلى الصعود إلى السطح، الذي يُطِلُّ على جزء كبير من المدينة.

ومن ذلك المكان عاينتُ مشهداً لا يقلُّ قرفاً وغرابة، وأرجو أن يعذرني قرّائي إن لم أستطع مقاومة غوايةِ سردِهِ.

من فوق سطح «دار إسبانيا» يمكن مشاهدة «السوق الكبير»، الذي أشرتُ إليه مراراً، من مسافة قريبة.

وجّهتُ نظري إلى السوق فرأيتُ حشداً كثيفاً وهمجيّاً، يعوي ويطوف حول بقرة تكاد تختفي تحت قصاصات الأثواب والورود التي كانت تُزيِّنُها.

كان ذلك الحشدُ من «عيساوة»، وهم طائفةٌ همجيّة ومتعصِّبة، يخشاها المغاربة أنفسهم.

اشتبك أغلبُ أولئك الرجال بالأيدي، وأقاموا حلقة كبيرة، ثم شرعوا يطوفون ببطء حول البقرة، التي كانت تخورُ بحزن كما لو أنها تعلم ما سيحلُّ بها.

وما لبث أن صاحبَ رقصَ «عيساوة» غناءٌ رتيبٌ، مليء بمدح الرسول. ثم أخذ الرقص والغناء يتسارعان شيئاً فشيئاً إلى أن انتهيا إلى سباق محمومٍ حول الحيوان المرعوب، الذي لم يكن يتوقّف عن الخُوار بشكل كئيب.

وفي لحظة، وقد احتقنت عيون «عيساوة» بالدّم، واختلطت عقولهم من دُوار السباق، وهيّجهم الصراخُ الهمجيُّ المتطايرُ من حولهم، انقضّوا على البقرة البريئة، كما لو كانوا حيوانات مفترسة.

وسرعان ما وقع الحيوان مرعوباً، وقد مُزِّقَ إلى ألف قطعة، واختفى دامياً، يحتضر، مختنقاً تحت ثقل أجساد «عيساوة» الذين تكدَّسوا فوقه.

ثم وقف كلُّ واحد من أولئك الرجال الهمجيّين وهو يحمل بين يديه قطعة ضخمة من الضحيّة، التي كانت ملقاة هامدة وممزّقة عند أقدامهم.

و... يا للوليمة الرهيبة! شرع أولئك المتشدِّدون، الذين يمكن مقارنتهم بحشد من سمك البيرانا المفترس، يلتهمون بلذة قطعَ اللحم النيّئة الدّامية، وهم ينشدون بين لقمة وأخرى أغنية متوحشة تدلُّ على غرائزهم الدّمويّة. وسأترجم هنا مقاطع منها:

«أنا ذئبٌ يأكل اللحم النيء

أشقائي الأسود، وأصدقائي النّمور هلمَّ للأكل هنا

أصفِّرُ مثل الأفعى، وأصبر مثل الضبع،

ومتعتي الوحيدة أن أرطِّبَ شفاهي بدماء الضحايا الدافئة».

انسحبتُ من السطح، في اللحظة التي كان فيها حشد «عيساوة»، الهائج والمُقرِف، يبتعد، حاملين البقايا المشوّهة، أو بتعبير أدق، الهيكل العظمي للحيوان المسكين.

وفي ذلك المساء قام المغاربة الأغنياء بـ «سباق البارود»[1] فوق الرمال.

وتتمثّل هذه التسلية فيما يلي:

(1) يقصد الكاتب سباقاً استعراضياً تقليدياً في التراث المغربي يُعرف بـ «التبوريدة» و«الخيّالة» و«صحاب البارود» و«الباردية». (المترجم)

يصطفُّ عددٌ من الأشخاص في ساحة أو مجال، راكبين خيولاً عربية رائعة ومتحفِّزة، أسرع بكثير من الأرانب.

يحمل كلُّ فارس بندقيّة.

وبعد أن يُشكِّلوا صفّاً طويلاً، يهمزون خيولهم، وينطلقون في سباق سريع، وهم يطلقون صرخات حادة وطويلة.

وعندما يصلون إلى نقطة محدَّدة، يطلقون النيران من بنادقهم، دون أن يتوقفوا عن العدو، ثم يتكرر الأمر إلى أن يصلوا إلى المكان الذي يشكِّل نهاية السباق.

كانت ثيابُ المغاربة الفضفاضة، ووجوهُهُم الحيويّة المعبِّرة، المتأثِّرة بروائح البارود وسرعة السّباق، وكلُّ تلك الألوان المنبعثة من قفاطينهم وسلاهيمهم[1]، تُشكِّلُ لوحة تسرُّ العين.

ويحبُّ كثير من المغاربة أن يُظهروا براعتهم في الفروسية، فيعمدون إلى رمي بنادقهم في الهواء عالياً والعودة إلى التقاطها خلال السباق، من غير أن يرتبكوا أو يفقدوا تحكّمهم في خيولهم المندفعة الجامحة.

ويتابعُ مسابقةَ الخيول تلك جمعٌ كبيرٌ من النساء اللواتي يجلسن القرفصاء، متلفِّعاتٍ من القدمين إلى الرأس بالحايك الأبيض، ويطلقن بين الحين والآخر زغاريدهنّ المتنافرة لإظهار فرحهنّ.

وعندما يسمع الفرسانُ تلك الزغاريدَ، يُهيِّجون خيولَهُم فتكاد تطير، بما يطلقون من صرخاتٍ حادة، وما ينخسونها به من همزات قويّة في تلك المواقف.

---

(1) جمع سلهام وهو رداء مغربي تقليدي يُلبس فوق الجلباب، ويشبه العباءة المشرقية. (المترجم)

كانوا يعرفون أن حبيباتهم، وأمّهاتهم، وأخواتهم يشاهدنهم، ويُصفِّقن لبطولتهم ومهارتهم في قيادة خيولهم الجموحة.

في بعض الأحيان تقع حوادث خطيرة، غير أن ذلك نادراً ما كان يحدث، فالمغاربة مشهورون بكونهم خير فرسان العالم.

إن الرحّالة الذي يتأمل سباقات الخيل تلك، يتذكر، ولا ريب، أولئك الفرسان المسلمين الغرناطيّين، عندما كانوا يخرجون من مدينتهم يَغْدون بخيولهم الرائعة إلى أن يصلوا قبالة معسكر الملوك الكاثوليكيين ذاته.

الفصل الثالث عشر

السفارة الإسبانية - مدينة موغادور - رسالة إلى الصّدر الأعظم

في العاشر من مايو سنة 1863، أي أيّاماً قليلة بعد تلك الوقائع التي أتيتُ على ذكرها في الفصل السابق، رَسَتِ الفرقاطة الحربية الإسبانية «لا بيرينغويلا» في مرفأ طنجة.

كانت تلك الفرقاطة مخصَّصة لنقلِ السفارة، الموجَّهَة من لدن إسبانيا إلى سيدي محمد سلطان المغرب، إلى مدينة موغادور[1]. وكان يتوجّبُ عليَّ أن أكون عضواً في تلك السفارة.

كم كان قلبي يخفق، وأنا أرى أنني أخيراً سأخترق ذلك البلد المجهول، المغلق دوماً في وجه المسيحيين، والتجارة، والضّيافة، والصناعة!

في مثل هذه الظروف الخاصة فحسب، أي عندما تتمكّن إحدى القُوى الكبرى الأوروبية من دفع سلاطين المغرب إلى قبول استقبال سفرائها، كان هؤلاء يستطيعون رفع جزء بسيط من ذلك الحجاب الكثيف الذي كان يُخفي ذلك البلد الغريب.

(1) Mogador، الاسم القديم لمدينة الصويرة في جنوب المغرب على المحيط الأطلسي. (المترجم)

أقول جزءاً بسيطاً فحسب، لأن السفراء يستغلّون إقامة جلالته الشريفة، المؤقتة في مدينة ساحلية، ليؤدّوا بها مهمّتهم الدبلوماسية.

نحن كنّا أكثر حظّاً.

كنّا سنتوغّلُ في ذلك البلد، الذي لم يخترق حدودَهُ إلا القليل. نحن كان علينا أن نعبره حتى نصل إلى مدينة مراكش العجيبة، حيث بلاط السلطان المُترَف؛ وعندما سنستقرُّ في تلك المدينة المجهولة، لن يكون أمراً عسيراً أن نطّلع على غالب عادات سكانها غير المعروفة.

كان يتوجّبُ على أعضاء السّفارة أن يقطعوا رحلتهم من موغادور إلى غاية مراكش على ظهور الخيل، وأن يتبعوا المسار الذي سبقَ أن حدَّده السلطانُ نفسه.

كانت السّفارة التي كنتُ عضواً فيها تتشكل من الأشخاص الآتي ذكرهم:

في المقام الأول يحضر فخامة السيد دون فرانسيسكو ميري إي كولون، المبعوث الخاص إلى الإمبراطور، والدبلوماسيُّ المحنّك الذي كان سيُسدي إلى إسبانيا في تلك المناسبة خدمات جليلة، مثلما سنرى فيما بعد.

ويحضر أيضاً دون خوسي ديوسدادو، سكرتير السفارة، ذو شهرة طيبة في عدد من بلاطات أوروبا؛ دون فليبي ريزو، القنصل في طنجة، وسكرتير العربية؛ ودون بيدرو دي ثوكاستي، الملحق الدبلوماسي؛ ودون رودولفو بيدال، موظف جديد في الترجمة.

وكان من بين أعضاء السفارة كذلك قداسة الأب المُبشِّر فراي غريغوريو مارتنيز، الذي كان يرافقنا بصفته ممثّل البعثات التبشيرية

الإسبانية بالمغرب، ومن مهامّه أن يمدّنا، عند الضرورة، بما قد نحتاج إليه من مساعدات روحية؛ والمحترم الملازم المُبَرَّز في القيادة العسكرية دون بيدرو غوميث دي ميديفيبيلا؛ والدكتور دون فرانسيسكو إستيفيث إي سوريانو، طبيب عسكري ملحق بالسفارة، والرسّام الإشبيلي دون خواكين دي بيكر، صاحب الريشة الرقيقة التي عرَّفت ببعض وقائع تلك الرحلة المهمة.

وكان، من بين أفراد الرحلة، بالإضافة إلى كل أولئك الأشخاص، الترجمان المغربي الحاج أحمد المرابط، والطالب[1] السيد أحمد المرابط، واثنا عشر من الخدم ومساعدي الخيول، مسيحيين ومغاربة.

في اليوم الثاني عشر من مايو من السنة المشار إليها في بداية هذا الفصل، وعند الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، استقبلت فرقاطةُ «لا بيرينغويلا» فوق ظهرها مبعوثَ ملكة إسبانيا وجميعَ أعضاء السفارة.

ساعتان بعد ذلك كنّا ننطلق في البحر، تحت حماية الفرقاطة «كونسويلو»، التي أمر وزير البحرية أن ترافقنا إلى أن نصل إلى مدينة موغادور.

أطلقت مدافع المدينة سبع عشرة طلقة، فأجابتها مدافع «لا بيرينغويلا» بعدد مماثل، وهي باخرة جميلة تمخر الأمواج بجلال وتتقدّم في البحر بسرعة مدهشة.

---

(1) يشير الكاتب في هامش هذه الكلمة أنها تعني في العربية «الكاتب». و«الطالب» يطلق في الدارجة المغربية على طالب العلم في المسجد أو الجامع. (المترجم)

في اليوم الرابع عشر وصلنا إلى موغادور، حيث استُقبِلنا من لدن السّلطات المغربية بالإضافة إلى باشا مدينة طنجة السابق سيدي بلعبّاس، الذي شارك في مفاوضات السلام بتطوان. وهي المفاوضات التي رسمت نهاية سعيدة للحرب الدامية بين إسبانيا والمغرب.

مدينة موغادور، التي تُسمّى «الصويرة» بالعربية، وهو ما يعني «المشيَّدة»، مدينة حديثة البناء.

شوارعها رحبة ومستقيمة، والأسوار التي تحيط بها، وكذلك تحصيناتها، لا تزال في حالة جيدة وتجهيزاتها المدفعية قوية.

يحمل بعض مدافعها البرونزية، وهي هديّة كارلوس الثالث، علامة صناعة سبك إشبيلية. وهناك مدفعان آخران، أحدهما من عهد فيليب الثاني، والآخر لفيليب الثالث. والبقيّة مدافع هولندية وإنجليزية.

فالمدينة محميّةٌ من جهة البحر ببطاريات مدافع ممتازة وبُرجَين دائريَّين متينَي البناء. أما بطاريات الجزيرة التي تُقفِلُ مدخل الميناء، فهي مُهمَلَةٌ بشكل كامل.

وقد خُطِّطَت مدينة موغادور وبُنيت في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، من لدن مرتدِّين إسبان.

وقبل أن نشرع في سفرنا داخل بلاد المغرب، وجَّهَ السيد ميري إلى سيدي الطّيِّب اليماني، وزير الإمبراطور الأعظم، الرسالة الآتية:

«نُعلمكم بوصولنا. استُقبِلنا من لدن سيدي بلعبّاس، الذي وجّهَهُ جلالة السلطان لمرافقتنا، ومن لدن سلطات موغادور وساكنتها، بكل تقدير وإعزاز يليقان بالصداقة القائمة بين عاهلينا.

نرجو منكم أن تبلغوا صاحبَ الجلالة السلطان بذلك، وأن تنقلوا لجلالته امتناننا للتدابير المتَّخَذَة لتصطبغ رحلتنا هذه بالراحة واللياقة المناسبتَين لسموِّ تمثيليَّتِنا.

بعد غد، بمشيئة الله، سنخرج متوجّهين إلى بلاط جلالة الملك السلطان. والسلام.

سُلِّمَ بموغادور في الرابع عشر من مايو سنة 1863».

وهكذا، يومين بعد ذلك، انطلقنا في طريقنا إلى ذلك البلاط المجهول، الذي كان الجميع يتلهَّفُ لزيارته.

الفصل الرابع عشر

إناء الحليب - الضيافة بين المغاربة - تاجر الزُّمُرُّد

غادرنا موغادور تحت حماية ألفٍ من الفرسان المغاربة ومئتين من المشاة من قبيلة حاحا.

كانت الساعة الواحدة زوالاً، ولم نلبث أن ولجنا السهول الرملية الرحبة التي تحيط بالمدينة.

عندما يرى المرءُ تلك الأغطيةَ الرمليَّةَ الهائلَةَ التي تنعكس عليها الشمسُ الملتهبة، يخمِّنُ الصحراءَ العظيمة والرائعة، حيث تَعرضُ جثثٌ غير مدفونة، هنا وهناك، عظامَها الجافة.

بعد انصرام ساعتين من المسير أو ثلاث، وصلنا إلى مكان يُسمّى عين الحلفاء.

كان الحرُّ خانقاً، فشرع أغلبُ المغاربة العطشى في العَدو بشكل فوضويٍّ نحو جدول صغير، يجري هناك، دافناً الجزءَ الغالب من مياهه في الرمال المتحركة.

كان المنظر حزيناً ويعرض في كل الأرجاء مشهداً كئيباً. تنمو هنا وهناك شجرات لوز بريّة، ضامرة وذابلة، تكاد غصونها تكون عارية من الأوراق.

يستخلص السكان المحليون من أشجار اللوز ذلك الزيت، الذي يشتريه منهم الفرنسيون بكميات كبيرة بغرض تصفيته. وبهذه الطريقة يصير زيتُ «أرگان»، وهو اسم ذلك المكان[1]، واحداً من أرفع الزيوت المعروفة.

بعدما روى المغاربة، من غير احتراس، عطَشَهُم الحارقَ، استأنفنا مسيرنا من جديد. حوالي الخامسة مساءً وصلنا إلى نهاية اليوم الأول، حيث وضعنا رحالنا قرب قرية صغيرة تُسمّى الحرارثة[2].

هناك وجدنا خياماً رائعة قد نُصبت لنا بأمر من إمبراطور المغرب نفسه. دخلنا تلك الخيام فرحين، نبتغي أن نستمتع بالراحة الضرورية لاسترداد قوانا التي كادت تستنفذها حرارة الشمس الملتهبة، التي ظلت طول الطريق تُصلي رؤوسَنا شواظاً من نار.

بعد وقت قصير على وصولنا، حضر النائب الثاني للباشا بقبيلة حاحا، وقدَّمَ نفسه للسينيور دي ميري، وأهدى له، بالإضافة إلى عدد كبير من البقر، والغنم، والدجاج، والبرتقال، والشموع... إلخ، كما هي العادة في أرض البربر، إناءً ضخماً من الحليب، وهو عند المغاربة رمزٌ للضيافة، وأسمى آيات الصداقة والودّ.

ويجب أن يستحضر القارئ أن العرب، عندما يقدِّمون هدية صداقة، فالأمر ليس كما يحدث عندنا عادة، شكل من أشكال السياسة والعناية، إنما هو، بالنسبة إليهم، التزام مقدّس يعقدونه مع أنفسهم، ولا ينقضونه أبداً.

---

(1) هذا النوع من الشجر يوجد في جنوب المغرب، وهو شجر الأرگان وليس شجر اللوز. (المترجم)

(2) الكلمة مشتقة من الحرّاث الذي يحرث الأرض.

يحترم المغربيُّ الضيافة، حيث يستطيع عدوُّهُ اللدود أن ينام عنده ضيفاً مطمئنّاً تحت سقف بيته؛ فالمغربيُّ لن يغدر بضيفه ولو مقابل ذهب العالم كلِّهِ، ولو كانت تحرِّكُهُ الأحقاد الأكثر دموية، أو تعصُّبُهُ الذي يُضرب به المثلُ.

ولكي أُبَيِّنَ أن الضّيافة عند أولئك القوم ليست مجرد كلمة جوفاء تُقال من دون عواقب، وأنهم لا يزالون يحتفظون بشيء من عادات الأسلاف النبيلة الملازمة للأجناس القديمة، سأروي واقعة حدثت بمدينة فاس لأحد مواطنينا.

منذ أعوام قليلة تجرّأ إسبانيٌّ شجاع، أحد أبناء مالقة الجميلة، على السفر إلى مدينة فاس، مدفوعاً بالرغبة في تحقيق ربح وفير وأكيد، حاملاً معه كمية كبيرة من الزمرُّد، من تلك الأحجار الكريمة التي يُقدِّرها المغاربة كثيراً.

سافر مواطنُنا متنكِّراً في هيئة مغربي، لأنه كان يعلم أن فاساً محرّمٌ دخولها على المسيحيين.

وتعرّفَ يومَ وصوله إلى تاجر يهوديٍّ مقيم بتلك المدينة، ولم يجرؤ هذا الأخير على استضافته في بيته، فأخذه إلى بيت رجلٍ وليٍّ، ذي لحية بيضاء طويلة، كانت تجمعه به علاقاتُ صداقة متينة.

استقبل الوليُّ، الذي كان أقل تعصُّباً من غالبية المغاربة، المسيحيَّ بترحاب، غير أنه أوصاه بأن يكون شديد الحذر.

كان الإقبال كبيراً على تجارة الزمرُّد، وربحَ الإسبانيُّ مبالغ كبيرة مثلما كان يُمَنِّي نفسه.

وكان اليهوديُّ مكلَّفاً ببيع الأحجار الكريمة للمغاربة الأغنياء من سكان المدينة.

وعندما كانت عملية البيع تكاد تنتهي، إذا بأحدهم، وهو إسبانيٌّ حقير مرتدٌّ يرغب في إرضاء المغاربة، يكشف لهؤلاء أن بيت سيدي مولاي عبد الرحمن، وهو اسم الوليِّ، يُؤوي مسيحيّاً متنكِّراً.

مسيحيٌّ في فاس!

ذاك قمة الجراءة والتدنيس، حيث تُعتبر فاس مدينة مقدّسة.

وعندما انتشر الخبر الرهيب، تداعت الحشود المتعصِّبةُ، وتوجّهت مندفعة إلى بيت الوليِّ مولاي عبد الرحمن، يملؤها الغضب والاستنكار.

وعندما صار البيتُ محاصَراً بالكامل، طلع الوليُّ الشيخُ من الباب، وهو يُمرِّرُ، بهدوء كبير، حبَّات مسبحته الغليظة بين أصابعه.

كان الشيخ ذا طلعة جليلة وموقّرة، فلم تملك الحشود المتجمهرة إلا أن تحني رؤوسها أمامه بخشوع وتواضع.

- ماذا تريدون؟ -سأل مولاي عبد الرحمن بحدّة-.

بعد تردد كبير، أجابه أحدُ المتزعِّمين، باحترام وإجلال:

- سامحنا يا مولاي إن كنّا قد أزعجناك في تعبّدك بمجيئنا، غير أننا لم نتجرّأ على الاقتراب من بيتك إلا لدافع خطير.

- ماذا تريدون؟ -كرّر الشيخ وهو يزداد حدّة-.

- نريد أن تسلِّمنا الكلبَ المسيحيَّ الذي يقيم تحت سقف بيتك -صاح صوتٌ من بين الحشود-.

- الموت للمسيحيِّ! -صاح بعض الجسورين-.

فرض الشيخ الصمتَ بإشارة حازمة، وأجاب بصوت واثق جدّاً:

- هذا المسيحيُّ، الذي تطلبونه عن جهل وتغرير، هو الآن في بيتي، وبيتي مقدّسٌ.

- فاس كذلك مقدّسة، والمسيحيُّ تجرّأ على أن يدخلها ويطأها بقدميه.

- ثم إن هذا المسيحيَّ -أضاف الوليُّ وهو يُخضِعُ الجموعَ بنظراته الغاضبة- قريباً سيكفُّ عن أن يكون كذلك، فهو يرغب في أن يعانق دين الرسول الكريم. وأنا تكفَّلتُ بأن ألقِّنَهُ مبادئ الدين الحنيف. لنرَ الآن إن كان لا يزال بينكم من يطالب بمن هو في حمايتي.

كان الشيخ يخاطب الجمهور وصوته يُرعد كالهزيم، وعيناه المتوقدتان والنافذتان تقدحان الشّرر.

أصابت كلماتُهُ الجموعَ بذهول عظيم، ولم يجرؤ حتى أجسرهم على أن ينبس ولو بكلمة واحدة.

خجل المتعصِّبون من أنفسهم لأنهم أساؤوا إلى الوليِّ، والجميع يعلم صداقته مع باشا فاس، بل مع السلطان نفسه، وأدركوا أن جرأتهم ستكلِّفهم غالياً جدّاً، فأسرعوا بالانسحاب في ارتباك وانكسار.

ولا بدَّ أن القرّاء قد أدركوا أن الإسبانيّ لم يكن يفكر في الارتداد عن دين آبائه: إنما أراد مولاي عبد الرحمن أن يُنقذه بتلك الكذبة الكريمة، وأفلح في ذلك. ولولا الوليّ لكان الإسبانيُّ الجسور، بلا شك، في عداد الموتى.

أراد مواطننا الإسباني أن يُعبِّرَ للوليِّ عمّا يغمره من شعور بالعرفان بما أسداه إليه من جميل، فرجاه أن يقبل منه هديّة زمرُّدة كبيرة. غير أن الشيخ، رغم إعجابه بالزمرُّدة، رفض قبولها قائلاً:

- كنت سأقبل هديتك عن طيب خاطر، لولا أن قبولها سيعني أن أبيعك ما صنعتُ معك من معروف صغير، وأنا لا أبيع أبداً معروفاً أسديتُه.

ولم يكن ممكناً جعلُهُ يتراجع عن موقفه. ولم يكتفِ بذلك، بل رافق بائعَ الأحجار الكريمة الجريء إلى مسافة كبيرة خارج المدينة، خشية أن يعترضه مكروه في الطريق.

ما أتينا الآن على ذكره ليس إلا دليلاً صغيراً على مدى احترام الضيافة عند المغاربة؛ فمهما يكن تعصُّب المغربي الديني لا يعرف حدوداً، يستطيع المسيحيُّ أن ينام مادّاً رجليه، كما يقال، تحت سقف المغربي الأكثر وحشية ودموية، أو أن يطلب الضيافة في خيمة بدويٍّ همجيٍّ متحيِّز ضدّ ديننا المقدس.

الفصل الخامس عشر

ستار الكعبة الأسود، أو بيت الله - الحجُّ إلى مكّة

مرَّت علينا الليالي الأولى، التي قضيناها تحت خيام السلطان، هادئة. كانت قوات باشا حاحا، الحاج عبد الله بيهي، وهو رجل خدومٌ وحريص على الرسميات، تحرسنا في نومنا.

وقبل أن أتابع وصف رحلتي، أودُّ أن أشير إلى أن كلمة «الحاج» التي يضعها بعض المغاربة قبل أسمائهم، إنما هي لقب شرفيٌّ لا يحمله إلا من قام برحلة الحجّ إلى مكّة.

لقد صارت رحلة الحجّ في أيامنا هذه، بفضل البواخر الإنجليزية وخطوط سكك الحديد التي تعبر الأراضي المؤدية إلى «الكعبة» أو «بيت الله»، لا تستغرق سوى فترة وجيزة: في السابق كانت الرحلة تدوم سنوات كاملة، وأكثر من ثلث الحجاج كانوا يهلكون في الطريق، إما جوعاً، وإما مرضاً، وإما تعباً.

يمقتُ المغاربة الحضارة، لكنهم يستفيدون من منافعها، فيستعملون البواخر والقطارات التي تستغلها بعض الشركات الفرنسية والإنجليزية.

كل مسلم يتوجّب عليه أن يقوم برحلة الحجّ إلى مكّة لمرة واحدة على الأقل في حياته.

وفي إمكان النساء أيضاً أن يزرن الكعبة، لكن يتوجب عليهنّ أن يكنّ مرافَقات بأزواجهنّ، أو آبائهنّ، أو إخوانهنّ: والمرأة التي لا تجد أحداً من هؤلاء تستطيع أن تتخذ زوجاً مؤقتاً، يمكن أن نسميه كذلك، تفترق عنه، إن أرادت ذلك، بمجرد انتهاء الحجّ.

في يوم معلوم يتجمع المسلمون، بأعداد لا تحصى، في منطقة واسعة محيطة ببيت الله.

هناك تذبح كلُّ أسرة أو مجموعة من الحجاج كبشاً، ويرمون بقاياه التي تتعفن بفعل الشمس الحارقة. وفي ذلك يكمن سرُّ أمراض الطاعون التي تدحر شعوب أوروبا في كل حين.

الكعبة بناء عظيم الأبعاد. في موسم الحجّ تكون الكعبة مغطاة كلِّياً بستار أسود هائل، يكون في الغالب هديّة من أمير آسيوي أو أحد الملوك المؤمنين بديانة محمد.

وعلى الرغم من عِظَم حجم ذلك الستار فإنه، عندما يُقسَّم إلى قطع صغيرة جداً، لا يكفي لإرضاء طلبات الحجاج الأغنياء، الذين يُبجِّلون تلك القطع باعتبارها تمائم، فيحرصون على الفوز بأكبر عدد ممكن منها.

ومن الواضح أن الحجاج الفقراء لا يملكون سبيلاً إلى تحقيق رغباتهم في امتلاك جزء صغير من ذلك الستار النفيس.

وكل ذلك يمكن أن يمنحنا فكرة عن العدد الذي لا يحصى من الحجاج الذين يقصدون مكّة كل عام.

وقد بيَّنَ لنا صديقٌ مغربيٌّ، أدّى الحجَّ مرّتين، تَهَافُتَ ما يعتقده المسيحيون من وجود قبر محمد داخل الكعبة معلَّقاً في الهواء بفعل حجر مغناطيس كبير.

هناك، لا يُرى سوى حجر أسود عظيم من المرمر، به صدع في أحد أركانه. ووفق معتقدات أتباع محمد فإن ذلك الحجر هو الذي بكى فوقه الملاك جبريل من أجل خطايا الإنسان.

وقد تحوّل ذلك الحجر، القائم في مركز البناء الهائل، إلى لونه الحالي الأسود بفعل دموع الملاك التي سقته؛ كانت في السابق بيضاء مثل الثلج، وفق ما تؤكده الرواياتُ العربية.

عددٌ لا يُحصى من الحجاج يموتون كل عام مختنقين عندما يحاولون ولوج الكعبة من بابَيها الوحيدَين.

تُخصَّصُ للأمراء والشخصيات الأخرى المُهمة حجيرات داخل المعبد، حيث يؤدّون صلواتهم بكل راحة، بينما بقية الحجاج يزدحمون ويحتشدون في أفنية المبنى الكبيرة وأروقته وردهاته.

وعلى الرغم من عدد الزائرين المجتمعين الهائل في ذلك المكان، فإنهم يزعمون أنه لم يحدث أن وقعت أدنى سرقة مهما تكن تافهة.

«إن سمح المسلمون للمسيحيين بدخول الكعبة (يقول بدعابة كاتب ساخر)، فستكون فرصة عظيمة بالنسبة إلى اللصوص لكي يخوضوا كما يشاؤون. فأنا واثق من أنه، خلال فترة الحجّ، لن يبقى لصٌّ واحد في أوروبا، حيث إن جميع أتباع كاكو[1] سيحرصون على أن يتحولوا كل عام إلى حجاج أفارقة».

يتوضأ المسلمون في مكّة بالمياه الصحية واللامتناهية من بئر زمزم الشهيرة، حيث لا تزال بارزة على ذلك البئر العلامات التي خلَّفها طابع خاتم سليمان العظيم.

(1) من آلهة الميثولوجيا الرومانية، ارتبط اسمه باللصوص. (المترجم)

يبيع مستخدمو الكعبة قنينات طينية، بسيطة الشكل، مملوءة بماء ذلك البئر، يشربه الحجاج باستمتاع كبير، يضاهي المتعة التي يحسها الشخص المولَّع بشرب الخمر، وهو يتذوق أعتق مشروب وألذّه، على الرغم من كون ذلك الماء غير صحي.

في مناسبات كثيرة قادت سياساتُ الحكّام الآسيويين المرتابة والوحشية إلى تسميم شخصيات محمدية بوساطة مياه تلك القنينات الموجّهة إليهم؛ فبتلك الطريقة تخلّصوا من العالم الكتلاني المشهور دون دومينغو باديّا إي ليبليش، المشهور في أفريقيا بـ «علي باي» الذي اختتن في لندن في سنّ الثلاثين، قبل أن يعيش بين المسلمين باعتباره أميراً عبّاسياً. فلمّا اكتُشِفَ أمرُهُ، في مكّة، عند حجّته الثانية، قاموا بتسميمه كما ذكرنا سابقاً.

يُعتبر دومينغو باديّا على الأقل وفق معرفتي، المسيحيّ الوحيد الذي دخل مكّة؛ الوحيد الذي اطّلع على تلك الأماكن الغريبة، المقفلة دوماً في وجه فضولنا.

ويلٌ للمسيحيِّ الذي تدفعه جرأته إلى اختراق ذلك المعبد المشهور، الأعظم والأكثر تبجيلاً في الإسلام! ولن يجديه نفعاً كونه رحّالة طلعة، أو شخصية سامية في العالم المسيحي، حيث سيتناثر جسده مِزقاً في اللحظة نفسها التي تُكتشف فيها هويّته.

والذين يرتدّون عن ديانتهم ليعانقوا دين النبيِّ المزيَّف، لا يحصلون على الإذن بالحج إلى مكّة إلا بعد أن يُخضعهم المسلمون لمراقبة لصيقة خلال سنين متعددة، ويقتنعوا بصدق إيمانهم والتزامهم بتعاليم معتقداتهم الجديدة.

وبما أن المسلمين يمقتون التصاوير، فإني أجد في ذلك دليلاً كافياً على تهافت تلك الصور العجيبة، الواردة في الكتب والصحف إلى حدٍّ اليوم، تمثيلاً للكعبة المشهورة؛ فالمسلمون لا يرسمون، وهم الوحيدون الذين في وسعهم مشاهدة ذلك المعلَم، ومن ثمَّ يجد الرسامون أنفسَهم مضطرين إلى الاستعانة بما ينقله إليهم المسلمون من أوصاف، ويجب التحذير هنا من أن هؤلاء يجدون متعة عظيمة في التلفيق والسخرية ممن ينصت إلى تلك الأحاديث.

وما كنت لأضمن دقة الوصف المقتضب الذي قدّمتُهُ للحجِّ في مكّة، لولا أني أخذتُهُ عن مصادر أربعة مختلفة، واثنان منهم، على التخصيص، يستحقان ثقتي الكاملة.

ليس في إمكان غير المسلم أن يطأ بقدميه تلك الأماكن المقدّسة، ولن نجازف إن قرّرنا أن لا أحد يستطيع ولوجها ما لم يوجد مقلِّدٌ آخر بمهارة دومينغو باديّا إي ليبليش، ذلك الحكيم والرحّالة الكبير، ويملك جسارته على مواجهة الأخطار العظيمة.

الفصل السادس عشر

في عمق المغرب - مرور السّيل -
حيوية مُمَثِّلِنا

في اليوم الثاني من رحلتنا أقمنا خيامنا في وادي الحنانشة (وادي الحيّات)، وهو مكان قمة في الجمال، وعلى الرغم من أن أرضه خصبة فإنها غير محروثة.

أقبل علينا باشا الشياظمة، الذي يملك تلك الأراضي، في ألفين من جنوده الفرسان لزيارة سفيرنا. وكانت أعلام تلك القبيلة المتشكلة من خمسة ألوان: أخضرين، وأحمرين، وواحد أصفر، كلها مثقوبة بالطلقات النارية.

ولا بدَّ أن كثيراً من تلك الثقوب، التي شاهدناها في تلك الأعلام، كانت من فعل جنودنا خلال الحرب الأخيرة بين إسبانيا والمغرب.

إن راية بربرية مليئة بثقوب طلقات الأعداء، تعتبر بالنسبة إليهم مصدر فخر واعتزاز، مثلما نفخر نحن ببيرق النصر الذي يسير مرفرفاً في مقدمة الجيش.

وبما أنّا أقمنا معسكرنا قبل سدول الليل بوقت طويل، فقد رغبت الخيّالة العربية في أن يحتفلوا بنا بإقامة سباق البارود. ولن أصف ذلك السباق لأنه مشابه تماماً في كل تفاصيله لذلك الذي سبق أن قدّمته للقراء في فصل من الفصول السابقة.

أما نحن فقد جلسنا على الطريقة الشرقية فوق سجاد هائل مفروش في ظلٍّ بناء مهدّم، ومن هناك كنا نتابع مناوشات الخيّالة الأفارقة وسباقاتهم.

جاءت نساء الدواوير القريبة بأعداد كبيرة، محجبات من الرأس إلى القدمين بلباس الحايك الأبيض الملازم، يُعبِّرنَ عن فرحهنّ بزغاريدهنّ الحادة والمؤثرة مثلما يفعلن في المناسبات المشابهة.

وعندما حلَّ الليل، ذكّرتنا أغاني حرّاس المعسكر بأغاني الأندلس الدافئة واللذيذة، التي كنّا نسمعها مفتونين وسط الهدوء والصمت السائدَين في تلك الأماكن المنعزلة.

في اليوم التالي، استأنفنا مسيرنا في الخامسة والنصف فجراً، وسط برد قارس. سلكنا طريقاً قفراً، كثير الحجارة، يتخلل أراضي غير مزروعة بادية الإهمال. وكانت أعداد كبيرة من الأرانب والأرانب البرية تعدو بين قوائم الخيول بشكل متواصل.

عرف ذلك اليوم، مثل سابقه، سباقاتِ الخيول، تميّز فيها شيخ متين، كان يقف فوق الصهوة، ويطلق النار من بندقيته، وجواده منطلقٌ في السباق.

ظلت الحرارة جد مرتفعة خلال النهار، غير أن برد الليل كان قارساً بشكل لا يطاق. فلم يلبث المخيّم أن بدا، وقد غشيته المواقد، مثل أجمل وأروع لوحة يمكن أن تُتصوّر.

في اليوم التالي خرج باشا بني سبع لاستقبال السينيور دي ميري عند مشارف حدود الأراضي التابعة لسلطته. وكان ذلك القائد العربي المسمّى مولاي الحبيب السباني قد حارب ضدّ إسبانيا، ويعرف جُلّ جنرالاتنا.

كان يتقدم موكبَ الباشا ثمانيةُ بدويين يركبون أربعة جمال، فلم ترَ العين مشهداً أكثر متعة من منظرهم وهم يسوقون تلك الحيوانات العظيمة بكل سهولة وأناقة.

بدت السهول الشاسعة التي أشرفنا عليها من موقع مخيّمنا، كلها غير مزروعة؛ لا شجر، ولا نبات، ولا كوخ واحد يكسر رتابة المشهد.

عند نهاية ذلك اليوم اكتشفنا، في البعيد، قمم جبال الأطلس الشاهقة، تكسوها ثلوج أبدية.

وعندما ترجّل سفيرنا قدّموا له، على عادتهم، جرّة اللبن، وكان في تلك الجرّة لبن الإبل.

في اليومين التاليين لم يحدث لنا شيء يستحق أن يُذكر، لكن في اليوم الثالث، عند مرورنا بوادٍ صغير، لكن شديد الانحدار، يُسمّى أبو الفراس، أخذ الرصاص يصفر من حولنا.

قبالة المكان الذي كنا بصدد عبوره، فوق مرتفع من الأرض، كان يعترض طريقنا، في خطٍّ ممتد، سكان أربع قبائل من أشرس القبائل التي مررنا بها وأكثرها وحشية.

كانت وجوههم، المحروقة بأشعة الشمس الملتهبة، تحمل تعابير همجية مخيفة؛ وكانت رؤوسهم وبقية أجسادهم، باستثناء ثوب ممزق يأتزرون به، عارية تماماً.

وعلى الرغم من أن رؤساءهم، وقد أشفقوا من انفلات غرائزهم الوحشية والدموية، كانوا قد أبلغوهم الأوامر بحسن استقبال السفارة الإسبانية، فإن تلك القبائل الفوضوية لم تعر الأوامر أي أهمية، واستمروا في قصفنا بنيرانهم الكثيفة. وأكرر أن الرصاصات كانت تصفر من حولنا.

وسرعان ما سقط فرس أحد الحرّاس صريعاً برصاصة أصابته في مقتل.

وبسرعة الريح اعترض ألفان من فرسان قبيلتَي عبدة ولحمر بيننا وبين أولئك المتوحشين، بأوامر من رؤسائهم، وتقدّمت مجموعة منهم، مغامرين بحياتهم، نحو تلك الجموع الهمجية قصد كبح جماحها، وقد زادتها رائحة البارود هيجاناً وعربدة. ولم تكن تلك مهمة يسيرة مثلما قد يظن البعض.

وعلى الرغم من نداءات الرؤساء المغاربة ووعيدهم، فإن أتباعهم، إن صحَّ نعتهم بهذه الصفة في تلك الأحوال، استمروا في إطلاق نار كثيف، والرصاصات لا تفتر عن الصفير فوق رؤوسنا.

وحدها معجزة من القدر حالت دون أن يصيبنا مكروه.

وقد انضاف حادث آخر ليزيد وضعنا الحرِجَ تعقيداً؛ نزل بضعة جبليين، ممّن لا يلقون سمعاً حتى إلى رؤسائهم الطبيعيين، بسرعة من المرتفعات واخترقوا الدائرة التي يشكلها حرس السلطان، ودخلوا إلى المكان الذي كنا نوجد فيه. وعندما رأى ذلك الباشا القائد العباس تقدّم بفرسه نحوهم ليجبرهم على التراجع ومغادرة المكان.

غير أن أحد الموروس[1]، على الرغم من أن من كان يأمره بالانسحاب شخصية مهمة جدّاً، فإنه لم يلقِ إليه بالاً؛ بل أظهر غضباً ووجَّهَ بندقيته إلى صدر الباشا.

---

(1) يكثر المؤلِّف من استعمال كلمة «مورو» للمفرد و«موروس» للجمع. ويطلق الإسبان هذه الكلمة للدلالة مرة على المسلمين ومرة على العرب وأخرى =

كاد الباشا أن يصاب بسوء لولا أنه داهم الدخيل بحصانه فأسقطه أرضاً؛ غير أن البدوي نهض أكثر شراسة وغضباً، وبما أنه عاد ليصوِّب فوهة بندقيته إلى الباشا فقد اضطرَّ أحد الحرّاس المحيطين بنا إلى طعنه بخنجره طعنة قاتلة.

وخلال ذلك الوقت تزايدت قوة النيران، وسقطت ثلاثة خيول أخرى، من خيول حاميتنا، جريحة.

أكـرّرُ أن نجاتنا لم تكن ممكنة إلا بمعجزة حقيقية كانت تجعل الرصاصات الموجهة إلينا تصيب الحيوانات المسكينة.

وفي الأخير استطعنا الوصول إلى المعسكر، حيث لم يتأخّر رؤساء أولئك البرابرة في الامتثال باحتشام بين يدي السينيور دي ميري، مستأذنين إياه في الخروج على رأس جنود المخزن، والانقضاض على المتمردين، مقترحين ألا يتركوا واحداً منهم على قيد الحياة.

غير أن ممثلنا الرحيم رفض اقتراحهم بكل قوة، عارضاً ألا يخبر الإمبراطور بذلك الحادث المزعج، حيث إنه يعرف تمام المعرفة أن مجرد إشارة منه بأدنى كلمة إلى ما وقع سيجعل السلطان يطيح برؤوس كثيرة.

ولم يكن ذلك السلوك من الدبلوماسي الذكي إنسانياً فحسب، بل صنع له مكانة بينهم، حيث أمر في اليوم التالي أن تصطفّ القبائل المتمردة ليستعرضها كل أفراد السفارة بالمرور أمامها. وبتلك الطريقة ساهم في ترسيخ صورة إسبانيا في تلك البلاد التي غزوناها بقوة السلاح، وحيث تحتاج مصالحنا التجارية إلى أن تظلَّ هيبتنا قائمة لا تشوبها شائبة.

= على المغاربة. يستعملها المؤلِّف أحياناً بطريقة محايدة، وأحياناً أخرى يحمل استعمالها معاني قدحية. (المترجم)

لو كان مكانه ممثل آخر لإسبانيا أقل جرأة، أو يفتقر إلى موهبة السينيور دي ميري، لكان قد قنع بالإفلات سالماً من ذلك الخطر المحدِّق الذي أحاط بنا؛ بيد أن ذلك لم يكن بالنسبة إليه كافياً، بل كان يسعى إلى أن تطأطئ تلك القبائل المتوحشة التي نادراً ما تعترف، سوى مقهورة بقوة كبيرة، بسلطة السلطان ذاته، رأسَها أمام إسبانيا وتلقي إليها بيد الطاعة.

حبذا لو كان جميع ممثلينا في الخارج يتمتعون بحيوية السينيور دي ميري وبذلك الوقار الذي لمسناه في كل مواقفه، لو تحقق ذلك لكان اسم إسبانيا مرفوعاً في مراتب أعلى ممّا هو عليه الحال في بعض البلاد التي لا حاجة إلى ذكرها!

الفصل السابع عشر

مدينة النُّعاس - بطاقة الصدر الأعظم

كل القبائل التي مررنا بها إلى حين وصولنا إلى نهاية رحلتنا، كانت تتصف بالوحشية ذاتها التي لمسناها في القبائل المذكورة في الفصل السابق. غير أننا لم نتعرّض لاعتداء جديد، لا لفظيّ ولا فعليّ، وكل ما كان يمكننا ملاحظته هي تلك النظرات، الحانقة والمشتعلة غضباً، التي كان أولئك المتطرّفون يوجِّهونها إلينا، لا يعلم مقدار الحقد والغضب المشحونَين اللذين كانوا يتابعون بهما مرور تلك الجماعة من المسيحيين إلا الله، وما يزيد الطين بلة أنهم مسيحيون إسبان، وكيف يعبرون بكل طمأنينة تلك البلاد التي لم تعرف إلا نادراً جدّاً زيارة أناس لا يتبعون تعاليم محمد.

لقد كانت رحلتنا تشكِّل في نظرهم قمة الجرأة.

وأخيراً، بعد مسير عشرة أيام، أي يوم الخامس والعشرين من شهر مايو، تراءت لنا عن بُعد غابات النخيل الكثيفة المحيطة بمدينة مراكش، المدينة المجهولة التي كنا على وشك الدخول إليها.

مراكش، تلك العاصمة العظيمة التي يجهل وجودَها الكثيرُ من الناس، هي مدينة مزدحمة وغير مضيافة، مقفلة تماماً في وجه التجارة

وأمام أي فكرة متحضِّرة، تستلقي حالمة، خاملة وحزينة بين النخيل وحدائقه، وفي ظلٍّ قمم الأطلس الشاهقة، تلك القمم التي تبدو كأنها تسهر على حلمها المتواصل.

لا يزال بعيداً، بعيداً جدّاً، ذلك اليوم الذي ستنفتح فيه أبواب هذه المدينة العجيبة في وجه المسافر الفضولي أو الصناعي، فالاسم المسيحي سيظل، بلا شك، في هذه البلاد، ولمدة قرون عديدة، موضوع كراهية متأصِّلة وفوق كل وصف.

كانت الثامنة صباحاً.

مراكش، التي كنا نقترب منها ببطء، تتراءى عن بعد، وسط غابة عظيمة، حيث ينمو عدد لا يحصى من أشجار النخيل الرشيقة.

تشرف عالياً فوق بنايات المدينة منارةُ جامعها الرئيس الجميلة، والتي بُنيت في نفس زمن الخيرالدة بإشبيلية وعلى يد المهندس نفسه.

وقبل أن نصل إلى هناك، ألفينا أنفسنا محاطين بأعداد كبيرة من الناس من مختلف الانتماءات الاجتماعية؛ من المورو الغني الوقور الأكرش وهو يركب بغلاً قوياً ثمين السرج، إلى الفقير المدقع، القريب إلى العري، ويعكس وجهه أقسى درجات البؤس.

كل أولئك الأشخاص كانوا ينظرون ويتطلعون إلينا بفضول بليد.

اقترب شيخ قويٌّ، يركب جواداً أرقط بالغ الجمال، يسبقه مجموعة كبيرة من المخازنية[1]، من السينيور دي ميري، ليهنئه ويرحّب به باسم السلطان.

---

(1) انظر هامش ص 69. (المترجم)

كان ذلك الشيخ يُدعى القائد الجيلالي، وكان وفق ما علمنا، فيما بعد، المكلَّف بالسفراء، وكبير حجّاب سلطان المغرب.

كان الطريق الذي سلكناه ذا مظهر رائع ومهيب معاً. يصطفُّ حشد كثيف، لا يحصى، على جانبيه خلف جنود السلطان.

وكان أولئك الجنود، بين راجل وفارس، مسلّحين ببنادق ثمينة وسيوف بمقابض من قرون الأيل.

في بعض الأحيان كانت الحشود الكثيفة، المنتشرة فوق التلال والسهل المديد المحيط بالمدينة، مدفوعة بفضول جامح، تكسر الخطوط القوية التي يشكِّلها الجنود، وتقترب منّا، نحن الذين كنا نمثّل، بلا شك، بالنسبة إليهم، حيوانات نادرة من فصيلة مجهولة.

خلال كل ذلك كان عساكر الحراسة الخاصة بقائد المشور[1]، المسلّحين بسياط التأديب، يبعدون الفضوليين بأبشع طريقة يمكن أن يتصورها المرء، حيث يصبّون عليهم جحيم سياطهم كما لو أن الأمر يتعلق ببهائم.

لكن، على الرغم من ذلك، لم نكن نستطيع أن نتقدم خطوات في مسيرنا إلا بصعوبة، حيث كانت الحشود المتطلِّعة إلى تفحُّصنا تقطع طريقنا دون أن تلقي بالاً إلى لسعات السِّياط الرهيبة ولا إلى أعقاب البنادق التي كان يوجِّهها إليهم العساكر.

كنا، بالنسبة إلى أولئك الناس الذين لم يسبق لهم في حياتهم أن رأوا مسيحيين، وينظرون باستغراب إلى وجوهنا ولباسنا، كائنات شديدة

(1) قصر السلطان وملحقاته. (المترجم)

الغرابة مثلما يمكن أن نستغرب نحن من سكان كوكب آخر إذا ما وقفوا يوماً ما على أبواب إحدى مدننا.

لا توجد أي مبالغة في ما ذكرناه أعلاه.

أعتقد أن وصول سفارة من سكان الشمس ستثير لدى شعب مدريد فضولاً أقل من ذلك الذي أثرناه في قاطني مراكش ونحن نقترب من تلك المدينة، على وقع أصوات موسيقاهم الفظة والنشاز، ودويّ مدفعيتهم التي أطلقت على شرفنا.

كل الوجوه كان يعلوها فضول شديد.

لم تكن السياط بصفيرها الرهيب، ولا أعقاب البنادق العنيفة، كافية لردعهم، ومن كل صوب كانت تصلنا هتافاتهم المستغرِبة وصرخات نفاد الصبر؛ لأننا كنا بالنسبة إلى أولئك الناس، وأكرر مرة أخرى، حيوانات نادرة ومجهولة، تستحق أن تُفحص عن قرب.

كانت الحشود تتعاظم أحياناً، فتبدو بتموجاتها المتلاحقة مثل بحر مديد شديد الهيجان.

كانت خلفية تلك اللوحة الطريفة المليئة بالحيوية، تتشكل من المدينة العظيمة بأسوارها العتيقة المكلَّلة بفتحات الرّمي والبروج الموريسكية.

خلف المدينة تنتصب قمم الأطلس الشامخة، ويمتدُّ فوقها سقف السماء ذو اللون الأزرق الصافي، حيث يلمع، ساطعاً ومنيراً، نجم النهار.

وإذا كان بعضنا قد استشعر في صدره قلقاً متفاوت القوة، بسبب الاعتداء الذي تعرّضنا له على يد تلك القبائل الوحشية والمتمردة، فإن ذلك القلق ما فتئ أن اختفى سريعاً، حيث إن موقف تلك الجموع الضخمة كان في غاية اللطف والكرم.

كل الوجوه كانت تلمع بالفرح والفضول. ويجب أن نعترف في حقّ أولئك الناس الطيبين أننا لم نلحظ لديهم، ولو مرة واحدة، أدنى علامة خبث أو كراهية.

وصلنا المدينة في الساعة التاسعة صباحاً، وترجلنا عند أبواب المنزل الذي أعِدَّ لنا، والذي كان يوجد قريباً من السور.

هناك اصطفّت وحدةٌ من الحرس السلطاني الأسود، مشكّلين لوحة حصينة ومشرقة، بفضل تنوّع ألوان قلنسواتهم وبرانيسهم.

كان مسكننا قصراً واسعاً يُسمّى المامونية، وهو النزل المفضّل لدى والد الإمبراطور الحالي مولاي عبد الرحمن.

وبعد أن ظلَّ القصر مهملاً لفترة طويلة منذ موت ذلك العاهل، خضع لعدد لا يحصى من الإصلاحات، لتأهيله بشكل ملائم لاستقبال السفارة الإسبانية.

كان القصر ذا نوافذ مربّعة على الطريقة الأوروبية، ومحاطاً بحديقة عظيمة، حيث تنمو العديد من الأشجار العتيقة والورود الرائعة المسقية بالنافورات الثرّة.

كانت أرضية القصر مكسوة بالزليج، ومصونة بشكل جيد، وبعض غرفه تحتوي أَسِرَّة من نحاس.

عند نزول السينيور دي ميري، قُدِّمت له رسالة أرسلها الوزير سيد الطيب اليمني، والرسالة مكتوبة بالعربية، تقول ترجمتها:

«الحمد لله الواحد الأحد

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. إلى المحترم الوسيط الحريص على جودة العلاقات، والموفِّق بين البلدين، وزير الحكومة

الإسبانية وسفيرها، المبجَّل في هذا البلاط السعيد، السيد فرانسيسكو ميري إي كولون.

نحمد الله على هذه اللحظة التي نستطيع فيها أن نهنّئكم على وصولكم إلى بلاط مولانا، ونخبركم أننا سنزوركم لتهنئتكم شخصياً عند نهاية النهار، بعد أن تكونوا قد أخذتم راحتكم إن شاء الله. نهنّئكم باسم مولانا نصره الله. والسلام.

سُلِّم في 6 من ذي الحجة عام 1279 للهجرة (الموافق لـ 25 مايو عام 1863).

- إمضاء: الطيب بن اليمني حفظه الله ورعاه، آمين».

وبالفعل، بُعيد الرابعة مساءً، تلقّى سفيرنا زيارة الصدر الأعظم.

لم تكن تلك الشخصية تبدو متقدِّمة في السنّ، غير أنه كان من الواضح أنها لم تكن تتمتع بصحة جيدة.

كان رجلاً رفيع المعاملة، ثاقب الرأي، بعيداً كل البُعد عن التكبُّر.

جرت المقابلة في أعلى درجات الودّ. وعند الوداع أخبر الصدر الأعظمُ السينيور دي ميري أن عدداً كبيراً من الحرس الشرفي يتولون حماية قصر المامونية منذ أن حططنا به الرحال، وأنه سيترك تحت إمرته أحد وجوه بلاط مولاه السلطان.

يتولى ذلك الشخص نقل أي رسالة أو خطاب من السينيور دي ميري إلى السلطان أو إلى الصدر الأعظم.

الفصل الثامن عشر

زيارة الصدر الأعظم - عيد الأضحى

كان من الضروري أن يردّ السينيور دي ميري زيارة الصدر الأعظم، وفي اليوم التالي، في الثامنة مساءً، انتقل إلى بيت تلك الشخصية المهمّة في بلاط السلطان، مصحوباً بجميع أفراد السفارة.

بعد أن عبرنا عدداً من الشوارع الطويلة والرحبة، مضاءة حينئذ بنور القمر، وصلنا إلى بناية كبيرة ذات شكل غير مألوف، وولجنا إلى فناء شديد الإنارة بواسطة ثريّات تحتوي كؤوس زيت ملوَّنة.

وبالإضافة إلى تلك الأضواء كانت تشتعل شموعٌ كثيرة نصفها أخضر ونصفها قرمزيّ، وهما لونا السلطان. تلك الشموع كانت موضوعة في شمعدنات عظيمة من البرونز.

قرب نافورة تتدفّق وسط الفناء، نُصبت مائدة مكسوة بغطاء، وحولها، فوق الأرضية المزلجة، وُضِعت أطباق صينية ذات أغطية مخروطية الشكل، يجاوز ارتفاعها القدم الواحد، مبطنة بمخمل أحمر وأخضر ومطرزة بالذهب. ويمتدُّ، عبر الممرات التي تشكِّل أروقة الفناء، عددٌ لا نهائيٌّ من المرتبات الصغيرة المكسوة بأثواب ثمينة.

كان الفناء مشرعاً على ثلاثة أبواب كبيرة.

في الباب الأوسط يجلس ثمانية موسيقيين، يؤدّون أغاني محلية، مصحوبين بدفوف، وقيثارات صغيرة، ورباب، ونايات. وكانت تلك الأغاني غاية في الرقة، تطفح بشجن ساحر. ولم تتوقف تلك الموسيقى والأغاني طول مدة الزيارة.

أما البابان على اليمين واليسار فقد كانا مليئين بالأعيان المغاربة، الذين ظلّوا يتفحصوننا في وقار وصمت.

وضعوا لنا كراسي.

يتكوّن خدم الصدر الأعظم من إماء سوداوات، رائعات الملبس، وأعداد من الغلمان السود، يرتدون بدلات غريبة خضراء وحمراء.

عند وصولنا إلى الفناء، تقدّم الوزير لاستقبال السينيور دي ميري، وقُدِّمَ إليه جميع أعضاء السفارة واحداً واحداً.

اهتمَّ الصدر الأعظم بوجه مخصوص بالأب المبشِّر فراي جريجوريو مارتينيز، مُظهراً معرفته الأكيدة بما يولّيه دائماً سلاطين أرض البربر من رعاية خاصة للمبشِّرين الكاثوليكيين.

بعد مراسيم التقديم، جلس الصدر الأعظم على الطريقة الشرقية فوق إحدى المرتبات المذكورة سابقاً، وقد جلس على يمينه، فوق الكراسي المخصَّصة لنا، سفيرنا وكاتب البعثة؛ وعلى يساره، السينيور دي ريثو، قنصل إسبانيا في طنجة؛ وجلسنا، باقي أفراد السفارة، فوق الكراسي المتبقية.

وزّعوا علينا الشاي بطريقة البلد، أي أن الكأس الأول يكون بالنعناع، والثاني بعشبة أخرى لذيذة المذاق، والثالث بالعنبر الرمادي.

وبعد الشاي قُدِّم اللحم مطهواً بالطريقة البربرية، والحلويات بكميات كبيرة. ومن ضمن تلك الحلويات واحدة مصنوعة من العسل والزيت، ذات مذاق حادّ بغيض.

خلال الحفل، قدَّم السينيور دي ميري بدبلوماسية بارعة، للصدر الأعظم نسخةً من الرسالة الملكية التي تعيِّنه باعتباره سفيراً لدى البلاط المغربي، طالباً منه، بشكل رسمي، أن يتسلَّم أوامر السلطان، لتحديد اليوم والساعة لإجراء المقابلة كي يقدِّم له الرسالة الأصلية من ملكة إسبانيا.

دامت تلك الزيارة شبه الرسمية ساعة أو أكثر بقليل، وبعد ذلك ودّعْنا تلك الشخصية المضيافة، وقد خرج يرافقنا حتى الباب الخارجي.

بعد ذلك بيومين عيّنَ السلطان يوماً للاستقبال، معبِّراً للسينيور دي ميري عن أسفه للتأخُّر في استقباله.

خُتِمت الرسالة التي أبلغ فيها الوزيرُ سفيرَنا بقرار السلطان، بالصيغة الآتية:

«إن سبب تأخُّر استقبالكم يعود، كما لا يغيب عن علمكم، إلى وفود القبائل لتهنئة جلالته نصره الله بعيد الأضحى، واجتماعهم لتقديم الهدايا في الأيام المخصَّصة لذلك. إنكم، بحمد الله، في القلب، وما ينبغي لكم أن تهتموا لما لاحظتموه من تأخُّر في استقبالكم، بما أن العذر واضح جليٌّ».

كان عذر التأخُّر في استقبال ممثل إسبانيا، المشار إليه من لدن الإمبراطور، صحيحاً. فعيد الأضحى يُحتفل به عند المسلمين بإجلال كبير، وفي تلك الأيام يتلقّى السلطانُ الهدايا المالية التي ترسلها إليه كل الأقاليم المخلِصة، بواسطة باشاواتها.

تقوم تلك الهدايا مقام الضرائب في أوروبا، ويرافق تقديمَ تلك الهدايا احتفالاتٌ مصحوبة بعزف الموسيقى وطلقات البنادق، التي يهواها المغاربة كثيراً.

عشية اليوم المخصَّص للاستقبال طرأ حادثٌ مهمٌّ.

تمثّلَ ذلك الحدث في دخول شيخ وزّان[1] إلى المدينة.

يحظى الوليُّ المذكور، وهو من سلالة محمد، بتبجيل عظيم عند المغاربة. يستطيع، إذا ما أراد ذلك، أن يخلع الإمبراطور عن عرشه ويضع فوقه مَن شاء مِن أدنى خدمه.

كان رجل الدين المغربي ذاك خلاسيّاً، طويلاً مكتنزاً، لطيف الطلعة، ذا لحية طويلة مجعَّدة.

كان لباسه، يوم دخوله المدينة، كامل البياض، باستثناء العمامة التي كانت في اللون الأخضر، وهو اللون الموقوف على سلالة النبي المزيّف[2].

كان الوليّ، مثل البابا، ينتعل في قدمه اليمنى نوعاً من المداس، ويضع في إبهامه خاتماً ذا حجر مدفون.

---

(1) في النص الإسباني El santo de Guasàm أي «قدّيس كوازام»، وقد ترجَّح لدينا أن المقصود هو شيخ الزاوية الوزانية سيدي الحاج عبد السلام بن العربي المتوفى سنة 1310 هجرية الموافق لـ 1892 ميلادية. يعضد هذا الترجيح تقارب النطق بين كلمتي «كوازام» و«وزّان» حيث نتج التحوير عن جهل الكاتب باللغة العربية واللهجة المغربية، ومكانة الشيخ في المجتمع المغربي سواء لدى الخاصة أو العامة، وما ذكره الرحّالة الإسباني من ميل الشيخ إلى العادات الأوروبية. غير أننا لم نحصل على نصٍّ تاريخي يؤكد هذا الترجيح. (المترجم)

(2) يقصد الرسول الكريم ﷺ. (المترجم)

كل من أراد أن يقبِّل ذلك الخاتم يستطيع أن يفعل، غير أنه ينبغي له أن يضع في يد الوليِّ قدراً معيّناً من المال. إنْ رَضِيَ الوليُّ عن المقدار المقدَّم فإنه يُقبِّلُ الخاتم بدوره، وإلا فإن طالب الرضى ينصرف بلا مال ولا بركة.

إن وليَّ وزّان كان شديد الولع بالتقاليد الأوروبية. ويجب أن نشير إلى أنه كان من عادته أن يسكر كثيراً.

فعندما كان يسافر عبر بلاد البربر، بغاية جمع مقادير كبيرة من المال، كان دائماً يكون مصحوباً بصناديق من قنينات الخمور الرفيعة، التي كان يستحيل الحصول عليها في المغرب، فكان يجلبها من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا.

وعلى الرغم أن قلّة من المغاربة فقط من كان يجهل أن الوليَّ هو سكّير يهمل تعاليم القرآن الذي يُحرِّمُ شرب الخمر، فإن احترامهم له كان يبلغ حدّ العبادة.

عندما يظهر في أي مكان عمومي، يحتشد الناس حوله، يكادون يسجدون له، وهم يحنون رؤوسهم مظهرين تعلُّقاً وحماساً زائدَين.

كان دخوله إلى مراكش دخولاً مظفّراً حقّاً.

اصطفَّ الجنود على طول الشوارع التي كان سيمرُّ منها، إلى غاية قصر الإمبراطور ذاته، حيث أُعِدّت له إقامته الخاصة.

ظهر وليُّ وزّان، محاطاً بأفراد من حرسه، تسبقه موسيقى صاخبة تتشكل من مزامير وطبول، وهو يركب بغلاً عظيماً، سرجه المزركش وغطاؤه الثمين أخضران.

كانت الجموع الكثيفة المحتشدة في الطريق، والتي كان من بينها أعداد كبيرة من العبريين، تكاد تنغرس في الجدران وفي مداخل الأبواب من شدة ضغط الناس لأجسادهم كي يفسحوا المجال أمام ذلك السيد القوي، ورجل الدين المتكبِّر، الذي تُعَدُّ أدنى نزواته أوامرَ نهائية تُنفَّذُ من دون تعليق أو استئناف من أي نوع كان.

كانت سبعة أعلام من حرير أخضر، رؤوسها عبارة عن كرات مذهّبة ضخمة تلمع في الشمس كما لو أنها مصنوعة من ذهب مصقول، ترفرف حول الوليِّ المذكور.

كان يمشي تحت مظلة عظيمة خضراء بدورها، مزيّنة بشراريب من خيوط ذهبية طويلة، يحملها رجل أسود عظيم الجثة. وكان الأسود، ذو الأذنَين المزيّنتَين المزدانتَين بقرطَين فضيَّين كبيرَين، حريصاً على أن يحتفظ بالمظلة في الارتفاع نفسه، حتى عندما كانت الريح القوية تجعل التحكم فيها أمراً شديد الصعوبة.

وكان الصدر الأعظم وكبار شرفاء البلاط يسيرون خلف الوليِّ باحترام وتبجيل.

وعلى الرغم من أن الولي كان معتاداً على ما يلاقيه من آيات التقدير العميق، فإنه كان يبدو شديد الرضا على حفاوة الاستقبال الذي خصَّهُ به البلاط، وترتسم على محيّاه ابتسامة رقيقة.

لم يرد الوليُّ أن يستقبل في ذلك اليوم أيَّ واحد من محبّيه الكثر، وقصر وقتَه كله على ملذات المائدة.

وفي اليوم التالي أصبح يعاني من عسر كبير في الهضم، ناتج في ما يُفترض، عن المبالغة في الأكل، حيث كان يعشق الولائم.

كان ذلك النصف إله يتلوّى من آلام متواصلة بشعة، تُذَكِّرُهُ أنه مجرد إنسان هالك مثله مثل أي واحد من الناس، وكلُّ خدمه، عندما رأوه في تلك الحالة المزرية، لم يعرفوا ما يتوجّب فعله للتخفيف عنه بعض الشيء.

انتشر خبر مرض وليٍّ وزّان بسرعة البرق في المدينة.

امتلأت ضواحي قصر السلطان بحشود حزينة وقلقة، فقد كان مرض الوليّ، بالنسبة إليها، أحزن حدث يمكن أن يقع في العالم.

وفي تلك الأثناء كان الوليُّ الشّره يعاني آلاماً رهيبة، ويصل صياحه عنان السماء.

وكانت الأمور على تلك الحال عندما علم مرتدٌّ فرنسيٌّ بالأمر، فتقدّم بكل جرأة أمام أبواب القصر، مقترحاً أن يعيد للوليِّ صحّته المفقودة.

وما أن علمت الحشود المتجمهرة أمام الإقامة الملكية بغرض المرتدّ حتى صاروا يتفحصونه بإعجاب، وأفسحوا له الطريق بكل تبجيل، حيث إن طبيباً في بلاد البربر (وهم كانوا يحسبون ذلك الرجل طبيباً) يكون دائماً محلَّ تقدير كبير.

وما فتئ المعالجُ الجريء أن أُدخِلَ إلى الحُجرة حيث كان المريض يتلوّى مثل حيّة وهو يطلق صيحات ألمٍ مؤلمة.

سريعاً ما أدرك المرتدّ طبيعة الداء الذي أصاب رجل الدين الشّره، ودون أن يضيع الوقت، أعطاه كمية كبيرة من الماء الدافئ ممزوجاً بالزيت، الذي لم تتأخر تأثيراته الطبيعية في تخفيف الألم عن المريض، الذي ما فتئ أن استسلم لنوم عميق مفيد.

لم يتحرّك المرتدّ خلال كل ذلك من جانب مريضه؛ وفي الحقيقة لم يكن باستطاعته الانصراف، ولو أراد ذلك لمنعه رجال الوليِّ، الذي استفاق بعد بضع ساعات من النوم معافى تماماً.

- أنا مدين لك بحياتي -قال الوليُّ وهو ينظر إلى المرتدّ بامتنان-، وانطلاقاً من هذه اللحظة صرتَ في خدمتي، إلا إذا كنتَ تفضِّلُ أن أمنحك هدية ثمينة.

- سيدي -أجاب المعالجُ وهو ينحني بتبجيل-، الله العلي القدير هو وحده من أنقذ حياتك، وليس هذا العبد المتواضع الذي كان سيموت من الحسرة إن لم يكن قد أصاب في اختيار الدواء الذي وضع حدّاً للآلام التي كانت تعذّبك.

أنا في خدمتك؛ ولكن بما أنك تُخيِّرني بين الهدية والتحاقي بخدمتك، فإني أختار الأول. أفعل هذا في سبيل الإنسانية المعذَّبة، حيث إن شغلي الوحيد هو أن أجوب العالم باحثاً عن النباتات الطبية وعن المرضى الذين يحتاجونها.

- إنك إنسان شريف وخيّر -قال الوليُّ-، وقد منحك الله الحكمة التي يصطفي بها خلصاءه.

اذهب في أمان، وليرعَ الله العلي الواحد خطاك.

قال ذلك، ثم أخرج من بين الوسائد التي كان يتكئ عليها منديلاً كبيراً من حرير تركيا، وأمر أن يُملأ بنقود ذهبية[1] ويقدَّم إلى المرتد.

---

(1) يذكر الكاتب اسم العملة بالأجنبية Bontiquies، ويقول في الهامش إنها عملة صغيرة من ذهب تساوي قيمتها نابوليونيين اثنين. (المترجم)

ولم تقف عطاياه عند ذلك الحدّ، حيث أمر أن يُمنح واحداً من أجود خيله؛ فطبيب مشهور مثله لا يليق به، بحسب رأيه، أن يتنقّلَ راجلاً.

وبذلك صار المعالجُ غنيّاً وراضياً جدّاً، فسارع إلى مغادرة مدينة مراكش حيث لم يكن يشعر بالأمان التام؛ فلو أن الوليَّ عاوده المرض مرة أخرى بسبب إكثاره من الولائم، ولم يتمكن المعالجُ من مداواته، فإنه كان سيواجه خطراً كبيراً، لأن كل أولئك الذين أعجبوا به، وأثنوا عليه، وباركوه، سينقلبون عليه ويمزقونه إرباً، دون تردد أو اعتبار من أي نوع.

الفصل التاسع عشر

حفل استقبال في المغرب -
مدينة النُّعاس - يهود مساكين!

عندما حلَّ يوم حفل الاستقبال، ارتدينا ما يليق من الملابس الفخمة، وإن كان من المناسب أن أشير إلى أن السينيور دي ميري وحده من كان يرتدي بدلة رسمية رائعة؛ أما نحن الباقين فقد ارتدى كل واحد وفق هواه.

كانت الساعة السابعة صباحاً.

تقدّم إلى أبواب إقامتنا الشخص المغربي المكلَّف بمرافقة السفراء وإدخالهم إلى القصر، تصحبه حاشيةٌ كثيرة العدد، وهم يجرّون من أجلنا خيولاً مسرّجة على الطريقة المغربية.

كان جنود السلطان يصطفّون، مثلما فعلوا يوم وصولنا، على طول الطريق الرابط بين قصر المامونية وقصر الإمبراطور.

كان هذا القصر يتكوّن من مجموعة عظيمة من البنايات، ويشغل عمق ساحة كبيرة حيث كان حرس الإمبراطور ينتظمون في صفَّين متوازيَين.

عند مدخل الساحة ترجّلنا وفق المراسيم المعتادة في ذلك البلاط، وأخذنا نتقدّم ببطء نحو القصر.

في الوقت نفسه تقريباً انفتحت بوابة القصر الكبيرة على مصراعيها، وبرز السلطان محفوفاً بجميع كبار رجال بلاطه وحشمه، على إيقاع

اللحن العسكري الملكي الإسباني المهيب، يعزفه موسيقيو جيشه النظامي، ولا بدَّ أن من بين أولئك الموسيقيين عدد من الفارين من الجندية المنتمين إلى سبتة، وصخرة بيليث[1]، وغيرهما من ممتلكاتنا في أفريقيا.

إن عرش سلاطين المغرب هو الحصان، ومن ثمّ ظهر ذلك العاهل ممتطياً جواداً رائعاً، جميل المظهر، في بياض الثلج، وفوقه سرج أبيض كذلك.

كان السلطان سيدي محمد، في ذلك العهد، قد جاوز الأربعين من عمره.

كان خلاسيّاً لأنه ابن زنجية من سلالة ملكية، وهي زوجة شرعية لوالده مولاي عبد الرحمن، وكانت ملامح وجهه ذات تعبير رقيق، طيّب وذكيّ، وبه بعض الشبه بالأمير مولاي العباس، شقيقه الذي ربما رآه في إسبانيا، خصوصاً في مدريد، الكثيرُ من قرائنا.

تركت إصاباتُ الجدريّ على وجه السلطان آثاراً عميقة لا تمحى.

ونكمل هذا الوصف السريع بالقول إن شفتيه غليظتان في طرفيهما، وفي نطقه تأتأة خفيفة، وفي سلوكه تميّزٌ ملحوظ.

كان حريصاً على التزام تعاليم الدين، فلم تكن ثيابه مزركشة بالذهب أو الفضة، ولم يكن يضع أي زينة ثمينة. كان كل لباسه أبيض.

سلّمهُ سفيرنا رسالة ملكة إسبانيا، فقال السلطان إنه شديد الرغبة في أن تكون علاقاته بجلالة الملكة دائماً غاية في الودّ مثلما كان الأمر في

---

(1) Peñón de Vélez de la Gomera، مستعمرة إسبانية في شمال المغرب، يسميها المغاربة صخرة بادس. (المترجم)

الأزمنة القديمة، مؤكِّداً أنه على استعداد أن يبذل ما في وسعه من أجل تحقيق ذلك.

قال أيضاً إن إسبانيا يجب أن تكون دائماً دولة صديقة للمغرب، حيث إن جوار البلدين يحكم عليهما، وفق قوانين الطبيعة ذاتها، أن تسود بينهما علاقات ودّيةٌ، بل حميمة.

ختم جلالته الشريفة خطابه، الذي تكلَّف السينيور دي ريثّو، ترجمان البعثة، بنقله إلى السينيور دي ميري، مبرزاً أن تلك هي النتيجة التي ينتظر أن تحققها تلك السفارة التي وجّهتها إليه أخته ملكة إسبانيا.

أجاب السينيور دي ميري بعبارات شديدة المجاملة والملاءمة، موضِّحاً أن ملكته تحرّكها الرغبات نفسها التي أعرب عنها السلطان، وأنه من جانبه لن يدّخر جهداً لتحقيق تلك الغاية السامية التي يسعى إليها العاهلان كلاهما.

بعد أن تمَّ تقديم جميع أعضاء السفارة، استأنف السلطان حديثه مع السينيور دي ميري، مستفسراً إن كان قد لقي العناية المطلوبة في الطريق وفي بلدات العبور، وإن كان راضياً عن سلوك رجال سلطته؛ مضيفاً أنه قد أصدر أوامره الصارمة بأن يعامل ممثِّلُ دونيا إيزابيل الثانية في جميع الأنحاء بما يليق به من تشريف وتقدير.

أنهى السلطانُ المقابلة بالترحيب بنا، ثم انسحب هو وجميع أعضاء بلاطه، وفي الوقت نفسه سُمعت من جديد في الساحة الرحبة موسيقى اللحن العسكري الإسباني.

ركبنا الخيول من جديد، مصحوبين بالمكلَّف بإدخال السفراء وبأعيان مغاربة آخرين، وعدنا إلى قصر المامونية، الذي كان بابه الرئيس لا يزال محروساً، مثل يوم وصولنا، بعدد كبير من الحرس الشرفي.

هكذا كانت مراسيم استقبال السفارة، الأولى التي حضرت إلى بلاط المغرب دون أن تحمل هدية إلى السلطان، وأخرى إلى وزيره الأول.

تلك الهدايا، التي لم تكن في الأزمنة السابقة تقلُّ أبداً عن خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألف دورو، كانت عبارة عن جزية تقدِّمها الأمم الأوروبية للعاهل المغربي.

لم يكن لمبعوثٍ، مهما كانت قوة الدولة التي يمثلها، أن يحظى باستقبال في ذلك البلاط إلا إذا كان مصحوباً بهدية ثمينة.

لم يرَ السينيور دي ميري، وهو نموذج الفارس والدبلوماسي (ولا تتضمن هذه الكلمات أي مبالغة)، من اللائق بالأمة التي يمثِّلها أن يكون حامل هدية للسلطان، فقررت الحكومة الإسبانية، نزولاً عند ملاحظاته، أن ينتقل إلى بلاط المغرب دون أن يحمل تلك الهدية التي كانت من قبل شرطاً ضرورياً لا مندوحة عنه.

حضر ممثِّلُنا الجليلُ لقاءات عديدة أخرى مع السلطان، حيث استُقبِلَ في الصالة المسمّاة صالة موغادور، ولم يكن من وسيط بينهما سوى المترجم السينيور دي ريثّو.

تمّت الموافقة على جميع مطالب إسبانيا، وتمَّ التنصيصُ على كل واحد منها في ظهير رسمي يحمل طابعاً ملكيّاً للإمبراطور.

وطول مدة تلك المفاوضات الإيجابية جداً بالنسبة إلى إسبانيا، كنا نجوب المدينة التي يجب أن نقول، بالمناسبة، أنها لم تكن تُقدِّمُ للناظر أي شيء ذي بال.

تلك مدينة واسعة، وعلى الرغم من أنها مليئة بالبساتين الخضراء التي تشرئبُّ أشجارها من كل الجهات، فإن مظهرها حزين ويكاد يكون كئيباً.

إذا استُثنِيَت الأيام التي تقطع فيها حفلاتُ المغاربة الصاخبة رتابةَ الصمت الطويل، فإن تلك المدينة لا تبدو بلاطاً لعاهلٍ قويٍّ، بل قرية كبيرة، شبه خالية من السكان، تكاد تصير مجرد أطلال.

عندما يعبر الواحدُ أحدَ شوارعها الطويلة والصامتة، والتي لا يعبرها، بين الفينة والأخرى، سوى مغربي حازم وكئيب، أو يهوديٍّ هزيل مصفرٍّ، لا تكاد خطواته الخائفة تجرؤ على أن تمسّ الأرض، يغلب الشعور بالحزن وينقبض القلبُ بصورة يبدو معها الهواء غير قابل للتنفس.

انتابني في مراكش حنين جارف إلى مدننا البهيجة والجميلة، لم أشعر بمثله في أي مكان آخر، بل حتى عندما كنت في حاضرة العرائش المحتضرة، والتي يؤكِّد رحّالة غريب أنها كانت موقع «جنة الأرض».

تنحصر التجارة هنا، وهي مصدر الرواج والثروات، في دكاكين بئيسة يملكها عبريون محلّيون ومسلمون من الجزائر، الذين لا يربحون من تجارتهم سوى ما يسدُّ الرّمق.

لكن توجد في المدينة بعض مصانع الأسلحة والأثواب المشغولة بشكل بدائي، والتي يرتديها المغاربة الأقل حظوة.

إذا كان عليّ أن أمنح اسماً لتلك المدينة، سأسميها «**مدينة النُّعاس**»[1]: فالصمت في المدينة كبير إلى درجة أنه هو السائد في العموم.

يعيش العبريون، الذين يشكِّلون جزءاً كبيراً من الساكنة، في أحياء معزولة. وما أن تغيب الشمس حتى يعمد قائد مغربي إلى إقفال ذلك

---

(1) في الحقيقة لا يدرك القارئ أن عنوان الرحلة هو «مدينة النُّعاس» وليس «مدينة الحلم» إلا عند الوصول إلى هذه السطور في قراءته، لأن كلمة «sueño» الواردة في العنوان الأصلي «La ciudad del sueño» تحمل معنيين: الحُلم والنُّعاس. (المترجم)

الباب الذي يصل تلك الأحياء بباقي أجزاء المدينة. ولا يُفتح البابُ من جديد إلا عندما تشرق الشمس من جديد.

يُعامَلُ العبريون في عاصمة بلاد البربر أقسى من معاملة البهائم، ويُحتقرون إلى درجة أنه لا يمكن أن يوجد في العالم كائنات أكثر تعاسة.

ما أشقى اليهودي الذي يمرُّ أمام مسجد أو بجانب بيت أحد وجوه المسلمين ولا يبادر إلى نزع حذائه!

مسكين هو ذلك الإسرائيلي الذي يتجرأ على أن ينبس بشكوى من ظلم استبداد حكومة مولاه السلطان!

في الحالة الأولى كما في الحالة الثانية، ومثلما هو الأمر في حالات كثيرة أخرى لا مجال هنا لإحصائها، يتلقّى البائس عدداً كبيراً من السياط حيث إنه نادراً ما يقوى على تحمّل مثل تلك العقوبة الفظيعة.

أما بالنسبة إلى العبريات اللواتي يتميّزن بجمالهنّ، فإنهنّ يفلحن أحياناً كثيرة في استمالة المغاربة الأثرياء.

وما على المسكينة، التي يقع عليها اختيار أحد أولئك الأسياد المستبدين، إلا أن تخضع ذليلة مثل كلب حقير يلعق اليد التي تعاقبه، من غير أن تبدي أي شكوى من وقوعها ضحية عشقٍ وحشيٍّ يمكن الجزم أنها لا تشاطره.

وبعد أن تُشبع رغبات مغربيٍّ قذر ومتغطرس، ويذبل جمالها، ينتهي بها المطاف أَمَة حقيرة في خدمة إماء سيّدها.

يُعتبر جنس اليهود البئيس والمحروم داخل المغرب أقل من الكلاب والخيول، فهذه حيوانات ذات قيمة كبيرة بالنسبة إلى المغاربة. إن اليهود الذين يعيشون في تلك القرى لا يمكنهم حتى اللجوء، مثل إخوانهم الذين يسكنون المدن الشاطئية في بلاد البربر، إلى الاحتماء بالمسيحيين

كي ينقذوا أموالهم من نهب الأعيان المغاربة، ويجدوا أنفسهم متحررين من ظلم إجراءاتهم. وبما أن المسيحيين لا يمكنهم الوصول إلى المدن الواقعة في عمق بلاد البربر فإنهم لا يستطيعون حمايتهم.

ترتدي النساء العبرياتُ بدلاتٍ ثمينة، غير أنها خالية من أي مظهر من مظاهر الأناقة والرقة، ومجوهرات غالية.

كم مرة حسبنا أنفسنا، ونحن نتأمَّل واحدة من تلك المخلوقات الحسناوات، أننا في حضرة إحدى النساء الرائعات اللواتي ورد ذكرهنّ في الإنجيل!

ويستعملن في زينتهنّ مواداً كثيرة، من بينها الزرنيخ الذي يدخل في صنع عجينة تُستخدمُ في تبييض الجلد.

وفي حالات معيّنة حصلَ اليهود المغاربة على وظائف رفيعة جدّاً لدى سلاطينهم.

كان القائم على خزينة والد السلطان الحالي يهوديّاً وكان صديقاً للسلطان، يخدمه بأمانة ووفاء، ولا يستغل نفوذه العظيم إلا في تحقيق ما يستطيع من أفعال الخير. وعلى الرغم من ذلك، فإنه تعرّض، عند موت صديقه ومولاه، إلى السحل في شوارع المدينة.

ونختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن هناك بعض اليهود الذين تمكّنوا من جمع رأس مال هائل وعظيم، يؤهِّلهم إلى أن يحظوا بالتقدير الكبير في أي بلد من بلدان أوروبا.

غير أن المال في بلاد البربر لا يفيدهم شيئاً، أو إلا قليلاً، لأنهم حتى لا يفقدوه يضطرون إلى إخفائه بحذر شديد، مظهرين فقراً مدقعاً، ويعيشون حياة خَصَاص وبؤس، في الوقت الذي بإمكانهم أن يسبحوا في الرفاهية.

يا لليهود المساكين!

الفصل العشرون

قصة حب مغربية - حدائق السلطان - نهاية الرحلة

المنشدون في مراكش هم في الغالب شعراء، يرتجلون في الساحات العمومية، على إيقاع صوت بندير ذي خشخيشات، قصصَ حبٍّ وحروب ضدّ المسيحيين، ومن المفترض أنَّ صُورنا في تلك القصص تظل دائماً سلبية.

وسأروي هنا قصة حب سمعناها تُغنّى في ساحة في مراكش، وقد ترجمها لنا المترجم المصاحب لنا:

«كان شريف قبيلة أنجرة وولي[1] المنطقة يدعوان الناس إلى الجهاد. وكان المقاتلون يشحذون خناجرهم، ويصنعون الرصاص والبارود.

وكان بوعزّة شابّاً ذا لحية جميلة وجسد قوي قويم مثل نخلة من تلك الأشجار التي تُرنِّحها رياح جبال الأطلس.

كان بوعزّة يحب الفاتنة خربوعة، وكانت هي أيضاً تحبه بجنون.

وكانت خربوعة جميلة الجميلات. عيونها ليلٌ، وخدّاها وردٌ وزنبق، وشفتاها رمّان، وأسنانها ماس، وصدرها وعنقها يثيران حسد جميع النساء.

---

(1) يتحدث الكاتب عن ولي «الكاوور» (El santon de El Kaour) ولم نقف على أصل الكلمة العربي. والكلمة تشير في الغالب إلى موضع في شمال المغرب بما أن قبيلة أنجرة تقع بدورها في شمال المغرب. (المترجم)

وكان بوعزّة سيغدو قريباً مكتمل السعادة بامتلاكه كل كنوز الجمال تلك، غير أن صوتا الشريف والوليّ ارتفعا من جديد يدعوان باسم الله إلى الجهاد.

إن الكلب[1] المسيحي يغير على المسلمين. لبَّى بوعزّة نداء الواجب وخرج للجهاد، وبقيت جميلة الجميلات دامعة العين وموجعة الفؤاد.

انتصر بوعزّة على المسيحيين. وطئ جوادُهُ الذي رأى النور في الصحراء الكبرى، ما لا يُحصى من الجثث، ثم قاد بخفّة وإباء صاحبه الشجاع إلى أبواب خربوعة.

لكن آه! كم كانت الفاتنة غير مخلصة ليمين الحب. خربوعة صارت تحب قبدير صاحب اللحية السوداء!

لم يشأ بوعزّة أن يتسرّع، وانتظر إلى أن سمع الأمر من الجاحدة نفسها! وعندئذ مات من الغمّ!

لعنة الله العظيم والعادل على النساء الخائنات!».

* * *

خلال اللقاءات المخصَّصة لتناول القضايا التي تهم إسبانيا بين السينيور دي ميري والسلطان، كانت تُعزف موسيقى عسكرية على مسافة معيّنة من الشخصيتَين، ويجب التنبيه إلى أن أغلب القطع المعزوفة كانت ألحاناً ومقاطع من موسيقى «ثارثويلا» الإسبانية.

كم كانت ستكون عظيمة متعةُ الشهير باربييري، والأنيق أرييتا، والمتواضع كابابيرو، وباقي أشهر موسيقيينا الكبار، لو أنهم أنصتوا إلى

(1) وردت الكلمة بالعربية في النص الإسباني. (المترجم)

موسيقاهم الرائعة معزوفة في تلك القاعات الملكية بقصر سلاطين بلاد البربر!

إن كل ما يمتّ بصلة إلى الوطن يكسب سحراً مضاعفاً في الغربة، ولا بدَّ أن تلك الموسيقى اللذيذة قد رنّت في آذان السينيور دي ميري أروع وأرقّ من أي موسيقى سمعها من قبل.

ولكي يجعل مقامنا في مراكش أكثر متعة دعانا الإمبراطور إلى زيارة الحدائق الملكية المسماة «أكدال»، المخصَّصة له ولنسائه.

وكانت تلك الحدائق من الرحابة بحيث استغرقنا أربع ساعات في قطعها على ظهور الخيل. وكانت محروثة بإتقان، ومحفوفة بأسوار محصّنة، ترتفع فوقها بين مسافة وأخرى أبراج صغيرة لكنها متينة.

توجد داخل تلك الحدائق بحيرات كبيرة عليها مراكب، يحاكي أحدُها زورقاً بخارياً.

وتشاهَدُ، وسط غابات البرتقال الكبيرة، إقاماتٌ صغيرة أو أكشاك، تقطن فيها نساء السلطان، منفصلات بعضهنّ عن بعض.

وبطبيعة الحال، وكما يُفترض، لم نشاهد أي واحدة من تلك النساء.

* * *

عرف حفل الوداع الطقوس ذاتها التي شهدها حفل الاستقبال.

عبّر السلطان عن رغبته القوية في أن تكون الصداقة بين إسبانيا والمغرب دائماً متينة ومديدة مثلما كانت في عهد الملك كارلوس الثالث، الذي يحتفظ له في قصره بصورة رائعة.

كافأ سفيرُنا بكل كرم المحتسِبَ (المسؤول عن أمور المدينة)، ورئيسَ الحراسة المكلَّفة بقصر المامونية، والبستانيّين، وخدمَ السلطان الذين كانوا يقومون على خدمة القصر المذكور.

طلب السينيور دي ميري من الإمبراطور أن يأمر بإعداد ما يلزم لعودته إلى طنجة، مع رجاء خاص أن يسمح له بالمسير ليلاً، كي يتجنّب لهب القيظ في النهار.

وجد السلطان بعض الصعوبة في قبول الطلب الأخير، مستنداً في موقفه إلى سببَين وجيهَين: السبب الأول هو أن ليس من عادة تلك البلاد السفر ليلاً، والثاني أن السفر ليلاً، في رأيه، يتسبّب في أخطار كبيرة، من بينها، وليس أيسرها، تلك التي يمكن أن تصدر عن قبائل متمرِّدة تقيم بجوار الطريق الذي كان علينا أن نسلكه.

غير أنه في الأخير وافق على الطلب، لأنه اعتبر أن الحرَّ الشديد السائد في تلك البلاد يمكن أن يصيبنا بضرر كبير.

وبعد أن حدّد السينيور دي ميري بنفسه تاريخ السفر، وأرسل السلطان إلى باشاواته أوامره السامية، تركنا قصر المامونية في الساعة الخامسة من صباح اليوم التاسع والعشرين من يونيو، ووصلنا إلى معسكر مشرع بنكارة بقبيلة الأوداية.

نُصبت الخيام بذلك المكان. وما برحنا حتى هبّت علينا رياح ساخنة وخانقة، يزيد من أذاها ذلك الحرُّ المنبعث من الأرض.

دام ذلك العذاب الذي لا يطاق ساعات عديدة. وفي الثامنة ليلاً استأنفنا المسير.

أضاء القمر طوال الليل، وظلت درجات الحرارة جد رائقة إلى حدود الواحدة فجراً، فإذا الجو يبرد وتشتد برودته إلى درجة كبيرة.

أدّت تلك التحولات العنيفة في درجات الحرارة إلى أن أَحْصَرَ المرضُ السينيور دي ميري، وأرغمه على ملازمة الفراش فور وصولنا إلى مخيّم الحرارثة.

ولحسن الحظ لم تكن علّته خطيرة، فاستطعنا مواصلة المسير بعد توقف يومٍ وليلة، ووصلنا في اليوم الثالث من يوليو إلى مدينة موغادور، في الساعةَ العاشرة صباحاً.

لبثنا في مدينة موغادور إلى غاية اليوم الثامن من الشهر حتى يستكمل السينيور دي ميري علاجه ونقضي بعض الأمور المهمة، وفي ذلك اليوم ركبنا الباخرة الحربية «باسكو نونييز دي بالبووا» المكلَّفة بنقلنا إلى طنجة.

وقد حظينا، خلال تلك الرحلة الخطرة، إذا ما استثنينا بعض الأحداث القليلة، بكامل الأمن، وتلقّينا في جميع المواقع كل الاحترام والتقدير، الأمر الذي يدلُّ على الأهمية الكبرى التي تحظى بها إسبانيا اليوم في تلك البلاد المجهولة، حيث يمكن للتجارة أن تحقق نتائج إيجابية لا حدود لها.

الفصل الواحد والعشرون

مغاربة الريف

لم أكن، في الحقيقة، راضياً عن رحلتي إلى بلاط مراكش إلا قليلاً.

لم أكن لأطيق الحياة في تلك المدينة الحزينة والقاتمة لولا تلك الرفقة المخلصة في الصداقة التي أحاطني بها أعضاء السفارة الإسبانية.

يبدو ذلك البلاط، المكوَّن من الأعيان الخاضعين لإرادة السلطان، مثل بلاط للأشباح.

سيذهب بحث الرحّالة الحالم والمتحمِّس سدى إن هو انتظر أن يجد في ذلك البلاط مغامرات الحب وأغانيه التي كانت تشغل بلاط الملوك المسلمين في غرناطة، هذا إن كان سكان المغرب ينحدرون من صلب أولئك المحاربين الفرسان الثائرين.

في تلك المدينة الغريبة والكئيبة، إذا استثنينا أياماً معدودة في السنة، مثل حفلات المولد النبوي ورمضان، فإن كل شيء يبقى صامتاً، وحزيناً، وتكاد تبدو مقفرة.

فسكانها يدفعهم الكسل المعهود فيهم إلى أن يلزموا بيوتهم، وهي بيوت تحتوي في الغالب على جنان جميلة جدّاً.

في طرقات مراكش الوسخة والملتوية، لا ترى سوى بعض النساء المغربيات يسرن بتؤدة وصمت، ملفوفات من الرأس إلى أخمص القدمين

في جلابيبهنّ، ويهود ينزعون أحذيتهم عند مرورهم أمام دار أحد أعيان المغاربة، ومغاربة صارمين يعدّون حبّات سبحاتهم.

كل أولئك الناس يمشون ببطء، وحذر، كما لو أنهم يخشون أن يزعجوا سكون ذلك الصمت المطبق في تلك المدينة النائمة.

لن يجدي البحث في شوارعها عن الحيوية والغليان المعهودين في التجمعات السكنية الكبرى.

في بعض الأحيان تقطع صمتَها البغيضَ همهماتٌ بعيدة، ثم يسقط الكلُّ من جديد في نعاسه المعتاد.

تكون تلك الهمهماتُ ناتجة، في الغالب، عن تلك الحشود التي ترافق أحد المجرمين البؤساء إلى مكان التعذيب، أو عن موكب عرس تصحبه موسيقى المزامير والطبول الصاخبة، أو عن فرقعات الأسلحة النارية المعتادة.

وتستيقظ المدينة في أيام معيّنة مؤقتاً من نومها البليد، خصوصاً أيام الجمعة عندما يخرج السلطان لأداء الصلاة في المسجد. حينئذ ينطلق عدد كبير من الحرس يمهِّدون بسيوفهم السبيل أمام الموكب، الأمر الذي يخلق، مدة ساعة أو ساعتين، ضجّة تبلغ من الحدّة درجة تبدو معها المدينة وكأنها فريسة تمرد.

* * *

أيّاماً قليلة بعد عودتنا إلى طنجة وصلتنا أخبار تقول إن سكان الريف[1] قد قاموا مرة أخرى بأحد هجوماتهم المتكرِّرة على مدينة مليلية[2].

---

(1) اسم يطلق على منطقة شمال غرب المغرب ممتدة على طول الواجهة المتوسطية. (المترجم)

(2) مدينة مغربية محتلة من طرف إسبانيا بشمال المغرب منذ القرن الخامس عشر. (المترجم)

يعاني سكان مناطقنا في المغرب من تهديدات متواصلة من لدن أولئك الأهالي المتوحشين، الذين لا يطيقون هيمنتنا على حواضر مهمة واقعة داخل أراضيهم ذاتها.

لو لم نكن نملك من وسائل الدفاع ما نملكه لحسن الحظ، فإن حواضر مثل مليلية وسبتة وصخرة بيليث والحسيمة لن تني أن تصير ركاماً من الحطام. ولو حصل ذلك فما أبأس مصير السكان حينئذ! إذا ما انهزموا أمام أتباع محمد فلن يجدوا عفواً أو تسامحاً، وسيهلكون ضحية التطرف البغيض.

وعلى الرغم من أننا قد سبق أن تحدثنا عن الريفيين[1] في خطاب هذا المؤلَّف، فإننا نرى من المناسب إضافة بعض التفاصيل التي يتميزون بها.

يتّخذ الريفيون، كما أشرنا من قبل، ضفائر، مثلهم مثل مصارعي الثيران عندنا، ويتميزون بها عن باقي المغاربة الذين يحلقون رؤوسهم كلياً.

تلمع وسط وجوههم، التي دبغتها أشعة الشمس، عيونٌ جميلة جدّاً في الغالب، غير أنها طافحة بالوحشية.

متمرِّدون، ومتطرِّفون، ومتوحِّشون، يكرهون مجرد سماع لفظ مسيحي، مرتكزين في ذلك على أحد تعاليم القرآن الذي يأمر بإبادة الكافر في أي مكان وجد فيه.

يرفض هؤلاء المغاربة، في أغلب الأحيان، الخضوع لأوامر إمبراطور المغرب ذاته، ولا يؤدّون الضرائب المفروضة عليهم من لدن باشاواته إلا

(1) يقصد سكان منطقة الريف بشمال المغرب. (المترجم)

مقهورين بالقوة، وهو السبب الذي يجعل السلطان مجبراً على تطبيق أقسى العقاب وأفظعه في حقّ رعاياه هؤلاء الأكثر تمرُّداً، تدل على ذلك رؤوس بعضهم المعلَّقة على أسوار عدد من مدن بلاد البربر.

على المسيحيين أن يتضرّعوا إلى الله أن يحفظهم من لقاء ريفيٍّ في مكان خالٍ، بعيداً عن الناس الذين يدافعون عنهم أو الذين قد يشهدون على ما قد يُلحقه بهم من أذى.

يُقسم الريفي يومياً في صلاة الفجر على أن يقتل مسيحيّاً، ومن المؤكَّد أنه سيبرّ بقسمه لو أتيحت له فرصة سانحة لذلك.

وبفضل شدة خصوبة الأرض، وليس نتيجة فلاحة ملائمة، لأن سوء تدبير الريفيين في هذا المجال وجهلهم كبير جداً، يُنتج الريف محاصيل هائلة من القمح، والذرة، والخرطال، والزيتون، وأنواعاً كثيرة من الفواكه.

يعيش أغلب الريفيين من منتوج أعمالهم الفلاحية؛ لكن بما أنهم ليس لهم حاجيات كثيرة، فإنهم يفضِّلون ممارسة القنص حيث يكثر عندهم الوحيش، على زراعة الأرض.

في أوقات معيّنة، وخصوصاً أيام أعيادهم الكبرى، يدخلون بالمئات إلى مدينتي طنجة وتطوان.

ويسهل التعرُّف إليهم بفضل بواريدهم الطويلة، سلاحهم الذي لا يفارقونه أبداً، وخناجرهم المعقوفة، وقوارير البارود التي يحملونها معلَّقة على الجانب بواسطة حبل من حرير ملوّن.

تُهيِّجهم رائحة البارود وتُسكرهم، فتتّسع أنوفهم، وتحمرُّ عيونهم، وتقلِّدُ أفواههم زمجرة الحيوانات المتوحشة التي تعيش في غاباتهم.

إن الاعتقاد بأن سكان المغرب سيكونون أحرص على محاكاة كل أفكار الحضارة والثقافة التي تسمح بتحسين ظروف الحياة، بسبب قرب بلادهم الكبير من إسبانيا، هو اعتقاد خاطئ.

فما أن غادرت قواتُنا المنتصرةُ مدينةَ تطوان، على أثر اتِّفاق السلام، حتى سارع سكانها المتوحِّشون إلى تحطيم المصابيح التي كان جيشنا الباسل قد أقامها في زوايا الشوارع[1].

وقد ظلّت تلك الشوارع نظيفة جدّاً مدة الاحتلال القصيرة، ثم ما لبث أن امتلأت من جديد بركام هائل من الأزبال؛ وكل تجديد كان قد أُدخل على المدينة اختفى في الحال.

وقد كان للريفيين قصب السبق في أعمال التخريب تلك. كنتَ تشاهدهم يعدون عبر الشوارع صائحين، وهم يلوّحون بقوة ويشيرون، ويلطخون بالقاذورات تلك اللوحات التي تعيّن بأسماء إسبانية شوارع وساحات المدينة.

ولا يزال صاحب هذا الكتاب يذكر أحد الأيام عند الغروب، حيث كان موجوداً قرب مقرّ البعثة الإسبانية، وأخذ ناقوس دير المبشِّرين يقرع للصلاة. وكان يوجد في الساحة جماعة من الريفيين متّكئين على بواريدهم.

وعند سماعهم جرس الناقوس رفعوا عيونهم نحو الدير الموجود كما قلنا بين مقرّ البعثة الإسبانية ومقرّ البعثة البرتغالية، وانطلقت في الحين، من تلك المجموعة، جوقة من اللعنات.

(1) يقول المغاربة إن الليل خُلق للنوم، ولأجل ذلك يكفي ضوء القمر عندما يلمع في السماء. ويرون أن الذين يسيرون في الشوارع إما أن يكونوا عديمي التربية وإما أناساً ذوي سِيَرٍ غير حميدة.

ولم يكن حظ السلطان مولاهم من تلك اللعنات قليلاً، لأنه يتسامح مع وجود المسيحيين في بلاده.

وسرعان ما وضع أحد الريفيين بارودته أمام وجهه وصوّبها، وهو يسبُّ اسم المسيح، نحو أحد المبشِّرين الذي كان يقف غافلاً، يشمُّ الهواء البارد خلف أحد شبابيك الدير الضيّقة.

أطلق كاتب هذه السطور صيحة عندما رأى ذلك، وارتمى على المغربي المتطرِّف، ساحباً إيّاه بقوة من ذراعه.

لكن، بالتأكيد لم يكن لتدخلي أن يكون كافياً لمنع وصول الرصاصة إلى مرماها لولا مصادفة وجود اثنين من المخازنية اللذين جعلا الريفيين يفرون بسرعة.

وسنروي حادثاً آخر يصوِّر مدى وحشية تلك الطائفة من سكان بلاد البربر.

كانت قد انتهت أيام صوم رمضان الأربعون[1]، وبتلك المناسبة كانت طنجة مليئة بالريفيين، الذين كانوا منخرطين وسط الشوارع في فرح صاخب، وهم يحاكون معارك ومناوشات، ويطلقون النار من بواريدهم بلا توقف.

وعلى الرغم من أن تلك البواريد بعضها كان رديء الصنع، ويتسبب في حدوث مكروه هنا وهناك، فإن ذلك لم يكن ينقص من اندفاع «المحاربين»، بل يزيده اشتعالاً أكثر فأكثر، ويرفع حماسهم درجات.

---

(1) خطأ واضح من المؤلِّف؛ إنما رمضان شهر واحد. (المترجم)

وعندما استنفذ حوالي عشرون من أولئك المتوحشين مخزون البارود في قواريرهم، جمعوا مبلغاً زهيداً من المال، واكتروا بدوية مغربية مسكينة لكي تكون وسيلة لتحقيق شهواتهم العنيفة.

لم تتأخر المرأة الشقية في النّدم على ما أبرمته من اتفاق، فحاولت الهرب من خلاعة الريفيين العنيفة، وانطلقت تعدو بسرعة الأرنب يطارده السلوقي.

كان الخوف يمنحها أجنحة، ومن المؤكد أنها كانت ستنجح في الفرار من ملاحقيها، لولا جلبابها الواسع، الذي سقط عن كتفيها والتفّ بساقيها فسقط جسدها فوق الأرض.

وما أن سقطت هنالك حتى... (مجرد سرد ذلك مرعب!) لحقت بها طغمة القتلة الذين كانوا يلاحقونها، وأخذوا يضربونها بأعقاب بواريدهم، فتركوها كالميتة، دون أن يجرؤ أحد على أن يقف إلى جانبها.

وعندما انتهوا من اقتراف ذلك العمل، الذي يليق بأشرس المتوحشين، أمسكوا بأيدي بعضهم البعض وشرعوا يرقصون على بعد خطوات قليلة من ضحيتهم، والتي فاضت روحها في اليوم التالي وسط آلام فظيعة.

إن القبائل المحيطة بمدينة مليلية شديدة الوحشية مثلما هي شديدة الشجاعة، ولا يعادل مقدار تعصّبها سوى بسالتها.

إن كراهيتهم للمسيحيين، بدل أن تنطفئ شيئاً فشيئاً، تزداد بلا توقف، ولولا دقّة انتباه جنودنا وشجاعتهم لفقدنا ممتلكاتنا في سبتة ومليلية، ولو حدث ذلك، وأضيف هذا بمناسبة الحديث، سينظر إليه «أصدقاؤنا» الإنجليز بكل سعادة.

تتعرض مدينتا مليلية وسبتة للاعتداء باستمرار.

لا يُضيع المغاربة، الذين يقصدون تلك المدينتين لبيع اللحوم، والدجاج، والبيض، والخضر، أيَّ فرصة لتوجيه رصاصة غادرة حتى إلى أولئك الذين لم يمرّ سوى وقت قصير على أن توصلوا منهم بنقود مقابل بضاعتهم.

متى سترقُّ عادات أولئك القوم الوحشية والغادرة؟

الإجابة مستحيلة.

وبالنسبة إلي فإني أعتقد أن ذلك لن يحدث أبداً.

الفصل الثاني والعشرون

ذكريات من طريفة - في مدح الغرباء

وصلتُ شهر سبتمبر.

في ذلك الشهر يقام احتفال «سيدتنا سينيورة دي لا لوث»، حامية طريفة.

دفعتني شدة قرب تلك المدينة من طنجة، ورغبتي في أن أقوم بجولة في إسبانيا، إلى أن أطلب إجازة من السينيور دي ميري ليسمح لي بقضاء بعض الأيام في قرية قزمان الطيب[1] البطلة. حصلتُ على التصريح من دون أي صعوبة تُذكر.

كانت بعثتنا تملك في خدمتها الخاصة زورقاً حربياً يُسمّى «البريد الإسباني»، وقد ركبتُ ظهر ذلك الزورق رفقة صديقيَّ الطبيبين أورتيز دي زوكاتي ورودولفو بيدال، والأول منهما، كما يذكر القراء، ملحق ديبلوماسي، والثاني موظّف جديد في قسم اللغات بالبعثة.

---

(1) Alfonso Pérez de Guzmán, El Bueno، قائد إسباني ولد عام 1256 وتوفي عام 1309. اشتهر بمشاركته في حروب إسبانيا الأفريقية، وحمايته لمدينة طريفة ضدّ هجمات المسلمين، ووساطته بين السلطان المريني مولاي يوسف والملك الإسباني ألفونسو العاشر. (المترجم)

آذنت الشمس بالشروق. كان البحر هادئاً، ولم يكن يداعب الماء، لحظة إبحارنا، سوى نسيم خفيف.

وعلى الرغم من أن ذلك النسيم كان ممتعاً بالنسبة إلينا، إلا أنه لم يكن كافياً لدفع شراع الزورق، لذلك وجدنا أنفسنا مرغمين على اعتماد قوة المجاديف للابتعاد عن طنجة.

نصف ساعة بعد ذلك وجدنا أنفسنا وسط مضيق جبل طارق.

كانت الشمس ترتفع ساطعة بجلال، فتنعكس أنوارها بقوة في المياه المضطربة من حولنا.

ثم ما فتئ أن خلّف ذلك النسيم ريحاً منعشة وممتعة، نفخت الأشرعة. عندئذ ارتاح أصحاب المجاذيف من مهمتهم المتعبة، وأخذ «بريد إسبانيا» يقترب بسرعة من شواطئ إسبانيا، التي كانت الشمس تطرد عنها شيئاً فشيئاً، بواسطة نورها الباهر، ضباب الفجر العجيب.

كم كان قلبي يخفق ونحن نقترب من وطني الحبيب!

يحتاج الإنسان إلى أن يبتعد عن وطنه مدة طويلة، لكي يشعر بذلك الاضطراب الذي كنت أشعر به في تلك اللحظات؛ بتلك اللهفة اللذيذة كي تطأ أرضاً إسبانية.

وشيئاً فشيئاً بدأت تتكشّف مدينة طريفة.

تبرز فوق زرقة السماء الصافية، المساكن وبروج المعابد، تحيط بكل منها أسوارها السوداء والعتيقة، حيث يتجول بعض الحرس، الذين تلمع حراب بنادقهم بأشعة الشمس.

وبعد ساعة من الإبحار البطيء قفزنا إلى أرض رملية كثيرة الحصى تمتدُّ أمام البلدة.

فوق تلك الأرض الرملية، التي سفعتها الشمس المحرقة عبر قرون طويلة، سقط من كوة خنجر ذلك البطل الجسور؛ الخنجر الذي سيُستعمَلُ في قتل ابنه الحبيب والبريء، والذي وقع في أسر المهاجمين بفعل خيانة خبيثة.

فوق تلك الأرض الرملية ذات الذكرى الخالدة، أمر الأمير الهمجيُّ، الذي أغاظه عجزُهُ عن دحر المقاومة العنيدة التي أظهرها حامي مدينة طريفة، بقطع رأس الضحية البريء؛ الابن المحبوب لذلك المحارب المظفر والمجيد، الذي يذكر اسمَهُ بتبجيل أهل البلد والغرباء.

تلك الرمال المباركة، سقتها دماء الطفل المسكين، الكائن البريء، الذي ارتفعت روحه إلى السماء تزيِّنها سعفة الشهداء الخضراء والمجيدة.

آه! يا طريفة! أيتها المدينة القديمة والعتيقة، ذات الاسم المبجّل!

أسوارك المتينة والمحصّنة منحت تاريخ ماضينا إحدى أجمل صفحاته!

وأنتَ، أيها البطل، الذي لا مثيل له، «قزمان الطيب»؛ أنت الذي شهدت من تلك الأسوار التضحية البربرية التي حرمتك من ابن محبوب، اسمح لشفتَي اليوم بأن تُقبِّلا باحترام عميق الحجرَ الذي استندتَ إليه كي لا تسقط من الإغماء عندما رأيتَ رأس ابنك الجميل مفصولاً عن جسده. اسمح لي، أكرِّر الرجاء، أن أنطق، بإعجاب وحبٍّ صادقَين، اسمك المبجّل!

لتكن مباركة ذكرى الخالد «قزمان الطيب» المجيدة. لتكن مباركة، مباركة!

* * *

دخلنا طريفة في الوقت الذي كانت فيه شوارعها تقدِّم أكثر المشاهد حيوية.

تدخل المدينة أعداد لا حصر لها من القرويين الذين جلبتهم احتفالات العذراء.

تشتهر طريفة ونواحيها بكونها تمتلك أجمل نساء إسبانيا، ويجب الاعتراف بأن تلك الشهرة مستحقّة جداً.

أي قدود، وأي شفاه، وأي بشرة متوردة، وقبل كل شيء أي عيون فاتنة تملكها تلك النساء!

يسرن، خلال النهار، مكسوات من الرأس إلى القدمين بعباءة سوداء، لا يُظهرن سوى عيونهنّ الفاتنة والمتلألئة.

وهكذا يستطعن، وهنّ مغطاة بذلك الشكل وآمنات من أن يتعرَّف إليهنّ حتى أقرب أصدقائهنّ، أن يقتربن من الغرباء، وأن يلكزنهم إذا ما مررن بجانبهم، أو يقرصونهم بحنان.

لكن يجب ألا تسيئوا الظن قرّائي الأعزاء بنساء طريفة نتيجة هذه الإشارات، فإنها لا تحمل من معنى سوى كونها عادات، أو تنكّر جميل كما يمكن أن نقول.

غير أن رودولفو بيدال، الذي كان أحد الشباب الأكثر وسامة فيمن عرفت، تعرّض في طريفة لعدد كبير من القرص والوكز، إلى درجة أن ذراعيه قد غطتهما، وفق قوله، آثار صغيرة.

أما بالنسبة إلي فقد فرحتُ لأني لم أكن موضوعاً لذلك الكم من آيات الإعجاب.

وتوجد في مدينة طريفة عادة أخرى، هي وفق أقوالهم تكريم للغرباء، وهو تكريم كنت لأتنازل عنه بكل سرور.

سأقول فيما يتمثل ذلك التكريم.

في اليوم التالي لوصولنا، خرجنا إلى الشارع مبكّرين إلى درجة أن الشمس لم تكن برزت بعد من المشرق. وكان الصباح بارداً وهادئاً، ويغري بالتجوّل في شوارع البلدة.

وعند وصولنا إلى شارع لا أذكر اسمه الآن، رأينا عجلاً، يكاد يكون ثوراً، يتقدم نحونا سريعاً مثل سهم.

وكان الحيوان، الذي كان مربوطاً بحبل طويل يمسك به أفرادٌ مرحون من سكان طريفة، يخور ويهدر بغضب متصاعد، وكل مرة كان يزيد من سرعة عدوه.

انطلقنا أنا وأصدقائي نعدو في الشارع، في الاتجاه المعاكس، هاربين من «التكريم» الذي رصدوه لنا.

غير أن الحيوان الصغير كان يعدو أسرع منا، وسرعان ما ألفيناه خلفنا، قريباً، قريباً جداً إلى درجة أن لهاثه الهادر كان يرشّنا برغوة بيضاء.

وأمام تلك الورطة حاولنا أن نحتمي ببعض الأبواب، غير أنها كانت كلها موصدة بإحكام، إما لأن الصباح كان لا يزال مبكِّراً جداً، وإما لأن ذلك يطيل التسلية، التي يكون ضحيتها الغرباء المساكين: وهذا التبرير هو الأكثر رجحاناً.

لم يتبقَّ أمامنا من مهرب سوى تسلُّق الشبابيك، المنتشرة بكثرة مثلما هو الأمر في سائر بلاد الأندلس، والتي تكاد تكون في مستوى الشارع. وفعلاً، تسلقناها كما لو كنا قردة في مسرح للعرائس.

سأروي ما حدث لي شخصياً، وهو يكاد يكون نفسه ما حدث لرفاقي الآخرين.

عندما ألفيتُ العجل يكاد يلحق بي من الخلف، تسلّقتُ ما استطعتُ شبّاكاً، راجياً التخلُّص من ذلك الحيوان الملعون.

رجاء خائب!

كان ذلك الشبّاك مغطى من الداخل بستار كبير من ثوب مخطّط. وما فتئ الستار أن انفتح بسرعة، وبرزت ثلاث فتيات مثل الشموس، وهنّ يتضاحكن بقهقهات كبيرة.

وقد أدركتُ أني في ذلك الموقف لم أكن لأبدوَ في عيون تلك الفتيات بمظهر رجولي جسور، غير أني لم أجرؤ على النزول إلى الشارع، لأن العجل، على الرغم من أنه كان لا يزال مربوطاً إلى الحبل الذي يمسك به بعض رجال طريفة، فإنه كان على بعد خطوة مني، ينتظرني بغضب متعاظم ومهدِّد، بقرونه الحادة.

- سنرى إذاً - قلتُ في نفسي - من سيتعبُ أوّلاً؛ أهل طريفة بأن يسحبوا عجلهم، أو أنا بنزولي من الشبّاك.

غير أني عندما قلتُ ذلك، لم أضع في اعتباري تلك الفتيات الجميلات، اللواتي كانت قهقهاتهنّ تزداد كل مرة ارتفاعاً.

عندما رأت بنات حواء الثلاث أني غير مستعد للنزول إلى الشارع ما دام العجل مستمرّاً في تهديدي، أخرجن ثلاثة دبابيس مصقولة وشرعن يخزن يديَّ بقسوة.

وجّهتُ إليهن نظرات تتراوح بين الغضب والرجاء، وعلى الرغم من ذلك استمررن في عملهنّ الوحشي، إلى أن عجزتُ عن أن أتحمّل لسعات دبابيسهنّ أكثر، ودفعني اليأس إلى أن أترك حديد الشبّاك وأقفز إلى الشارع.

أراد العجل عندئذ أن يحمل عليّ، لكن الطريفيين جذبوا الحبل لحسن الحظ، فاضطر الحيوان أمام قوة الأذرع التي كانت تسحبه إلى أن يتراجع مسحوباً، دون أن يتوقف ولو لحظة عن الهدير.

وهكذا حصلتُ أنا على «التكريم»، لكن رفاقي أيضاً كان عليهم أن يحصلوا على «تكريمهم»، ومن غير أن أتمكن من رؤيتهم حدستُ عذابهم (واسمحوا لي أن أسمّي الأمر كذلك)، وأنا أقف تحت الشبّاك الذي كانت الفتيات ما زلن يطللن منه.

قالت لي إحداهن، وقد لاحظت عبوس وجهي واكفهراره، وأدركت أن التسلية لم ترقني:

- سيدي! لو علمنا أنك ستغضب كل هذا الغضب لأحجمنا عن فعل ما أقدمنا عليه.

- أجل، أكيد!

أيّدت كلامَها واحدةٌ أخرى من تلك المنافقات، فتاة جميلة ذات عينين سوداوين فاتنتين، وشعر ساحر لامع.

- لم أغضب -قلت لهما-، ولا يمكن الغضب من أنيسات بكل هذا الجمال؛ غير أن...

وصمتُّ غير متجرّئ على التعبير عن تفكيري الكامل، أي أن أقول لهنّ إن ذلك التقليد كان يسيء لسكان طريفة، حيث إنه مع مضيّ الوقت لن يجرؤ أي غريب على زيارة المدينة خلال فترة احتفالاتها.

ومثل هذا التقليد المسيء ينتشر في الكثير من مدن الأندلس.

وأقول «مسيء»، لأن في طريفة ذاتها حدث أن «كرّموا» ذات مرة راهباً، وكان رجلاً متقدِّماً في السن، فدفع حياته ثمناً لذلك التكريم.

وذلك أن المسكين، عندما وجد العجل القوي السريع يكاد يلحق به، أصابه فزع كبير سيطر عليه لدرجة أن تعثّر وسقط على وجهه، وتلقّى صدره ضربة قوية، كانت سبباً في موته فيما بعد.

* * *

يسكن في طريفة من ثلاثة عشر إلى أربعة عشر ألف نسمة، وهي بلدة بهيجة وذات موقع جيد، يجمع الكثير من الشروط المناسبة للعمران.

أما فيما يتعلق بالبنايات، فليس بها ما يُذكر.

حُصِّنت بشكل ملائم منذ سنوات معدودة، وهي بلدة محمية بشكل جيد، خصوصاً في الجهة المطلة على البحر.

لم نقضِ في تلك المدينة سوى ثلاثة أيام. وبعدها ركبنا الزورق الحربي ذاته عائدين إلى طنجة، وقد حملنا معنا من احتفالات سيدتنا السينيورة دي لا لوث ذكريات ممتعة.

الفصل الثالث والعشرون

لصُّ العلق - إتلاف قبعتَين لإنقاذ أضلع رجل من مئة سوط

شاهدتُ في بعض الأحيان كيف يعاقَبُ المجرمون في المغرب بأشكال بربرية.

وصفتُ في بداية هذا العمل كيف تُعاقَبُ النساء الزانيات، والآن سوف أصفُ الطريقة التي تعاقب بها جرائم أخرى.

خرجتُ خلال إقامتي بـ«مدينة النُّعاس»، ذات صباح، أتجول في شوارع تلك المدينة الحزينة، يرافقني صديقي أورتيث دي ثوكاستي وأحد مترجمي السفارة المدعو سيدي أحمد المرابط.

كان الصباح جميلاً وهادئاً، وكنّا مبتهجين جدّاً لعلمنا أنّا سنغادر عن قريب تلك المدينة الجنائزية (وليسمح لي القارئ أن أصفها بهذا النعت)، حيث كان الملل قد اشتدَّ بنا كثيراً.

كان أورتيث دي ثوكاستي، صاحب الأخلاق الطيبة والمحبوبة الذي لن أنساه أبداً، منهمكاً في السرد، يحدّثني عن الرحلة إلى المغرب التي قام بها في بداية عام 1767 في عهد الملك كارلوس الثالث، البحّارُ الشهير خورخي خوان، عندما رأينا حشداً كبيراً من المغاربة مقبلين من الجهة المقابلة من الشارع وهم يصيحون ويلوّحون بقوة.

توقفنا عند زاوية في الشارع نريد أن نعرف ما يعني ذلك.

خلف المغاربة، أو بتعبير أحسن، محاطاً بالمغاربة، كان يسير حمار وديع يركبه رجلٌ في متوسط العمر، يلبس جلابة قديمة وقذرة، وذو مظهر فظيع.

كان يتدلّى من جبهته، ومن خدّيه، ومن شفتيه، علقٌ كثير ضخم، وأقول «ضخم» لأن تلك الحيوانات الصغيرة الدموية كانت ملتصقة بوجه ذلك الشقي، وتمتصُّ من دون هوادة دمه، إلى حدّ أنها تنتفخ وتتمدد بشكل عجيب.

كان ذلك الوجه المخيف تخطّه خيوط رفيعة من الدم.

وفي الوقت الذي كان فيه «الرجل صاحب العلق» ومرافقوه الكثر يمرون بجانبنا، أخذ مغربيٌّ طويل، قبيح المظهر، ويكاد يكون بالإضافة إلى ذلك أسود اللون، يصيح بصوت قادر على أن يُسمِعَ الصمَّ أنفسهم:

- أمر عدلُ مولانا السلطان العظيم، حفظه الله ورفع ذكره، بمعاقبة هذا الرجل لأنه سرق العلق من سيدي قدور المقدّم.

نقل إلينا المترجم الذي كان يرافقنا الكلام المذكور أعلاه.

بعد أن انتهى «الدلّال» (وسندعوه بهذا الاسم لأننا لا نجد غيره[1]) من الصّدع بإعلانه، نزل على المجرم بضربتين قويتين من العصا وبضربتين أقل قسوة على مؤخرة الحمار، وبذلك استمرَّ عدل سلطان المغرب في التقدّم.

---

(1) كان يدعى الرجل الذي يقوم بتلك المهمة الإعلامية في المغرب «البرّاح». (المترجم)

- أيها السادة – قال لنا المترجم سيدي أحمد المرابط –، إذا أردتم أن تنقذوا ذلك الشقي من الجَلد الذي سيتعرض له عند الزاوية القريبة، ما عليكم إلا أن تلقوا بقبعاتكم أمامه.

- هذه حقيقة – أكد أورتيث دي ثوكاستي –، يحظى الغرباء الذين يشغلون مناصب سامية في أرض البربر بهذا الامتياز. سنقوم بفعل خير؟

أجبتُهُ أنا:

- هيّا، لنقم بذلك!

وأخــذتُ أسير بخطى سريعة خلف لصّ العلق، يتبعني صديقي والمترجم.

لم نتأخر سوى قليل في الوصول إلى زاوية الشارع حيث كان من الضروري أن يمرّ ذلك الشقيّ.

لحظات بعد ذلك وصل هذا الأخير، وهو لا يزال محاطاً بحشد من الفضوليين البلهاء.

عندما انتهى صياح البرّاح، وفي اللحظة التي كانت فيها الضربة ستنزل بقوة على أضلع المجرم، نزع صديقي قبعته، وكذلك فعلتُ أنا، وطارت القبعتان إلى أن وقعتا على مسافة قصيرة من الحمار.

توقف البرّاح، أو الجلّاد، أو كائناً من كان، والعصا مرفوعة في يده، ونظر إلينا بتدقيق وهو لا يزال على تلك الهيئة.

ثم وجّه إلينا سلاماً، أو تحية تقدير، وهو يعقد ذراعيه فوق الصدر خافضاً رأسه.

وفي هذه المرة لم يستمتع بملاطفات العصا الثقيلة سوى الحمار الصغير، لأنه تلقى خلال ذلك خمس أو ست سياط من يدِ صديقةٍ.

انتفض الحيوان بقوة، وأطلق نهيقاً قوياً جعل بعض الأطفال، الذين كانوا يقفزون حوله، ينطلقون في قهقهات كبيرة، ثم استأنف مسيره.

وكذلك فعلت الجموع التي لا بدَّ أننا قد حرمناها من «متعة قوية»، ومن قضاء أوقات لذيذة، وقال لي أورتيث دي ثوكاستي:

- أعتقد أننا سنضطر إلى أن نكرِّر المشهد في كل الزوايا التي سيمرُّ منها هذا الرجل المسكين. فهذا العمل، بالإضافة إلى كونه عمل خير في نظر الله، فإنه سيسلّينا بشكل ممتع.

وبعد أن قال ذلك، نظر إلى قبعته، التي كان طفل يهودي قد التقطها منذ لحظات، وأضاف مبتسماً:

- سَنُتْلِفُ زوجاً من قبعات جيمس باتلر[1]، لكن في المقابل لن تتلف ضلوع المجرم.

وبالفعل، كرّرنا المشهد في زوايا متعددة، وفي كل مرة تُحقق قبعاتُنا التأثير ذاته الذي أحدثته في المرة الأولى.

وكان البئيس المسكين يوجِّه إلينا، من خلال الدماء التي تغطي وجهه، نظرات عميقة مليئة بالعرفان.

وقد نسينا أن نشير إلى أن ذلك الرجل كان يسير ويداه مربوطتان إلى ظهره بواسطة حبل سميك.

وقد انقسمت الحشود، التي كانت تتبع الرجل، طمعاً في الاستمتاع بالمشهد الفظيع الذي توفِّره لها العدالة المغربية مجّاناً، إلى طائفتَين: طائفة أخذت تنفضُّ شيئاً فشيئاً، مقتنعة بأن التسلية قد انتهت، بينما

(1) صانع قبعات شهير بجبل طارق.

استمرت الطائفة الأخرى في مواكبة المتهم، وهي تأمُل، بلا ريب، أن نتعب، وألا نستمر في منحه حمايتنا القوية.

لكننا لم نتعب، والشكر لله! وظللنا نرافق سارق العلق الشقي إلى أن تركناه عند أبواب أحد سجون المدينة، حيث كان عليه أن يقضي مدة معيّنة.

أجهل إن كنّا قد أخطأنا بتعطيلنا لفعل عدالة جلالة السلطان، غير أن الأكيد أن ضميرنا ظلَّ راضياً جداً عمّا فعلناه.

ومن جهته، أقرّنا السينيور دي ميري الذي سبق أن حدّثنا القرّاء عن قلبه الطيب في مناسبات سابقة، على سلوكنا، قائلاً إننا قد تصرفنا بصورة رائعة، ليس باعتبارنا مسيحيين فحسب، بل كذلك باعتبارنا ديبلوماسيين.

أما فيما يتعلق بقبعاتنا فقد أصابها من التلف ما جعلها غير صالحة للاستعمال من جديد.

كانت قبعتي قد انكسر جناحها، أما قبعة أورتيث دي ثوكاستي فقد نالت من العجن والتشويه ما جعلها تشبه أي شيء إلا قبعة.

وقد علمنا فيما بعد أن محميّنا كان محكوماً بأن يتلقّى على الأقل مئة جلدة.

قاده ولعُهُ الكبير بالعلق إلى ذلك المصير المحزن.

والآن أجيبوني قرّائي:

هل فعلنا خيراً بإتلاف قبعات جيمس باتلر، أقصد قبعاتنا، أم كان علينا أن نسمح لهم بسحق ضلوع ذلك التعيس؟

الفصل الرابع والعشرون

تعذيب همجي

شهدتُ كذلك عقاب سارق آخر، لكنه سارق يسكن مدينة طنجة.

في تلك المرة كانت السرقة ذات أهمية كبيرة، ولم تكن قبعاتنا كافية لإنقاذ الشقي من العقاب المرعب الذي حُكم عليه به.

تمثّل العقاب في قطع يده اليمنى ورجله اليسرى.

وقد تمّ البتر بالطريقة الآتية:

اقتيد المتهم إلى خلاء يوجد خارج أسوار المدينة. وهناك كان الجلاد في انتظاره.

وبجانب ذلك الرجل كان توجد خشبة، وساطور كبير يصلح عادة لذبح البهائم، وقِدر كبيرة مملوءة عن آخرها بسائل أسود كريه الأبخرة.

كانت القِدر معلقة إلى ضرب من سيخ من حديد، فوق موقد مشتعل يغذّيه الجلّاد باستمرار بأغصان يابسة وقطع خشبية.

استولى على الخلاء حشد عظيم من الناس، متلهّفين لحضور العذاب الفظيع الذي سيتلقاه واحد منهم.

الإنسانية هنا، مثلها مثلما هو الأمر في البلدان التي تدعى متحضِّرة، شريرة، وعذراً إن أطلقتُ مثل هذا الرأي على أشباهنا من الناس.

قرب الخشبة، قريباً جداً منها، كان يوجد بعض الأوروبيين. وتبرز بينهم سيداتٌ، جميلات جداً، وفوق هذا إنجليزيات، كما يبدو من مظهرهنّ.

قلت لنفسي:

- ها هنا سيدات قد ينتمي آباؤهنّ أو إخوانهنّ أو أزواجهنّ إلى جمعية حماية الحيوانات، أو إلى جمعيات أخرى مشابهة. يتباكين أكثر من النبي جيريمي، ويتألمن كثيراً لعذابات كلب أو هرٍّ، ويذهبن لمشاهدة إنسان لم يسيء إليهنّ بأي شكل وهو يُعذَّبُ أفظع تعذيب دون أي يكون لذلك أي تأثير فيهنّ.

وهؤلاء السيدات أنفسهنّ، أو غيرهنّ، سيغمى عليهنّ إن رأين فأراً يجري، أو شاهدن عنكبوتاً يتسلَّقُ سقفاً.

سنرى إن كان الدم سيحدث فيهنّ الأثر ذاته.

لقد لاحظتُ، ولا أقول هذا لأن لي موقفاً ضدّ الجنس اللطيف الذي أعزّه كثيراً، أن المرأة، على الرغم من أنها تبدو عكس ذلك، فإنها في الغالب أكثر شراسة من الرجل وأشد قسوة، ويمكن أن نقول إنها أقوى منه تحكُّماً في أعصابها.

ودليلاً على ذلك، قرّائي، لاحظوهنّ إذا لم يَكُنّ في سيرك الفروسية، ففي مباراة الثيران، أو في أي مباراة من ذلك النوع حيث تكون حياة الإنسان في خطر كبير، وسترون كيف يركزن نظراتهنّ، دون أن يرفّ لهنّ رمشٌ، على الشقي الذي يغامر بحياته من أجل أن يسلّي المشاهدين.

هل تعتبر ذلك أثراً طبيعياً للفضول؟

يمكن أن يكون الأمر كذلك.

لكن إذا كان ذلك مجرد فضول، فإنه فضول يؤذي ويحزن القلب.

يمكن للنساء (ولنتذكر أن لا وجود لقاعدة من دون استثناء) أن يطلقن صرخات ويغمى عليهنّ عند مشاهدة رياضيٍّ تنكسر رجله أو نصفُ دزينة من ضلوعه، أو عند رؤية مصارع الثيران يخترقه القرن الهائج؛ لكن يجب ألا نشك لحظة واحدة في أنهنّ قد قضين وقتاً ممتعاً وهنّ يحضرن تلك المشاهد اللاإنسانية.

يا لبؤس الوضع الإنساني!

* * *

أخيراً وصل اللص المحترف إلى مكان التعذيب. كان يرافقه حوالي اثني عشر أو خمسة عشر مخزنيّاً.

كان المتهم رجلاً قصير القامة، بديناً، قرويّاً في الظاهر. يرتدي سروالاً فضفاضاً من ثوب أبيض، وجلباباً من صوف مخططاً بالأسود، وطربوشاً تونسياً ينتهي بشرابة زرقاء كبيرة.

ألقى ذلك الرجل نظرة سريعة على الحشود التي كانت تتفحصه بفضول، ثم تقدّم نحو الخشبة المرعبة من دون أي تردد.

وعندما وصل إلى الخشبة امتثل لإشارة الجلاد، الذي كان قد امتشق ساطوره الكبير، بأن طوى أكمام يده اليمنى إلى المرفق، ووضع يده فوق الخشبة.

سُمع صوتُ ضربة حادٌّ، وقويّ، ومرعب، فسقطت اليد من الخشبة فوق الأرض.

لم يصدر عن المتهم أدنى صراخ. واتجه بخطوات سريعة، لكن دون أن يتمايل، نحو القدر العظيمة، التي كان سائلها الأسود يغلي فوق النار المشتعلة، وغمس يده المبتورة في ذلك الخليط المرعب.

سرعان ما انتشرت في المكان رائحة شواء لحم قوية.

وكانت الحشود تتأمل بشراهة ذلك المشهد المدهش، ولم يكن يفلت من الجميلات الإنجليزيات، اللواتي كان بعضهنّ يستعين بمنظارات المسرح الصغيرة، أدنى تفصيل من تفاصيل العقاب الرهيب.

وخلال كل ذلك لم تظهر على المتّهم أي علامة ضعف، وكان يتحمّل العذاب الجهنمي الناتج عن الكيِّ، ليس بتسليم، بل بفخر وبكبرياء لا محدود.

لم يكن أحد يسند ذراعه، ولم يكن أحد يسنده، وعلى الرغم من ذلك، ظلَّ هادئاً وهو يُبقي جرحه المدمى داخل السائل المغلي.

مرَّ بعض الوقت على ذلك الوجه.

وبعد دقيقتين تقريباً، أخذت شرايين عنق ذلك الرجل وشرايين جبينه تنتفخ بصورة بارزة كما لو أنها ستنفجر. وفوق وجهه تجري قطرات عرق غليظة.

ولا بدَّ أن العذاب في تلك اللحظة كان عظيماً.

أخرج، أخيراً، ذراعه المسودّة والدخان يتصاعد منها، من القدر المرعبة. كان جلده قد تغضّن.

وضع الجلّاد منديلاً مبللاً بسائل ما فوق الجرح. ثم ربط المنديل بحبل، دون أن يحذر من إيذاء المتّهم: كان يبدو كما لو أن الأمر يتعلق بشيء جامد.

اتجه المتّهم مرة أخرى نحو الخشبة، ووضع فوقها رجله اليسرى.

سُمِعَ من جديد صوت ضربة، تبعه صوتٌ آخر وآخر، إلى ثلاثة.

لا بدَّ أن الساطور لم يكن حادّاً كما ينبغي، أو أن الجلّاد لم يكن يضرب المكان المناسب، ومن ثم لم تُقطع رجل ذلك الشقي بسرعة.

وعند سماع صوت الضربة الثالثة أرسل الرجلُ صيحة مرعبة، رهيبة، جعلتني أرتجف وجمّدت الدماء في عروقي.

أزحتُ عينَي عن مكان التعذيب، ووجّهتُ نظري إلى الإنجليزيات.

كنّ ما زلن يلزمن أماكنهنّ؛ وكنّ لا يبتعدن سوى بثلاث أو أربع خطوات عن المتهم. كنّ يتهامسن، ويبتسمن، ولا يتوقفن عن النظر.

وكانت التي تبدو أصغرهنّ تلاعب كلباً صغيراً جميلاً في حجم قبضة اليد، وهو ينبح بقوة، ويقفز عند قدميها.

أكاد أجزم أن ذلك الشقيّ الذي كانت تُقطع رجله اليسرى، بعد أن بُترت يده اليمنى، كان، بالنسبة إلى تلك الآنسات أو السيدات، ذوات المظهر الرفيع والسلوك المتأنق، أقلَّ شأناً وقيمة من أحقر حيوان في الخليقة.

ما أهمية مغربيٍّ جلف، ذميم، مقرف، مدبوغ الوجه، محتقنة عيناه بالدم، منتفخ العروق تغطي فمه رغوة دموية؟

لا أهمية له!

هو أقلُّ شأناً بكثير من الكلاب الضّالة.

آه! يا للنساء!

أنا أهواكنّ، وفي نفس الوقت تُثرن فيّ احتراماً عميقاً كثير الشبه بالخوف!

آه! أيها الشعب الإنجليزي، أنت الذي تخلق جمعيات لحماية الحيوانات، ولم يمضِ على بيعك نساءك في سوق لندن أعوام كثيرة، اسمح لي أن أقول لك إني أغبطك على رزانتك وبرودة دمك الدائمة!

* * *

وفق ما علمتُ لاحقاً، لم يستطع اللصّ المحترف الشقيُّ أن يصمد للعذاب الوحشيِّ الذي حُكِمَ عليه به، وسقط مغمى عليه وقد تحوّلت رجله اليسرى إلى عجين دموي مقرف.

بعد ذلك بوقت وجيز قضى ضحيّة حمّى دماغية.

الفصل الخامس والعشرون

دافنو الذهب

قبل أن أختم هذه الملاحظات حول رحلتي، والتي جمعتها تحت عنوان «مدينة النُّعاس»، يبدو لي ملائماً الحديث عن تقليد ينبغ فيه المغاربة بشكل لافت. أقصد ذلك التقليد الأثير لديهم في الحرص على دفن الأموال. إنهم يعتقدون أن مقدار ما يكتنزون في الدنيا سيلقون مثله في الآخرة.

كلهم يدفنون، من السلطان القوي إلى أفقر رعاياه.

يدفن المالَ الباشا الشيخُ الذي يستنزف، من أجل مُتعه، القرى الفقيرةَ الخاضعة لنفوذه.

يدفن أمواله التاجر الكبير عندما يعود من أسفاره إلى الأندلس وجبل طارق ومارسيليا وكثير غيرها من جهات العالم حيث يبيع نعال تافيلالت، وجلاليب فاس، والتمور الغنية، والبرتقال اللذيذ.

تدفن المال أيضاً المرأةُ المدَّخرة وتلك التي تسرق من بيتها.

وفي الأخير: حتى الفقراء الذين يطلبون الصدقات، والأطفال الذين لم يبلغوا بعد سنَّ الرشد، الجميع، كلهم يختارون مكاناً متوارياً يضعون فيه مدّخراتهم أو نتاج سرقاتهم.

أحياناً كثيرة يحدث، كما هو متوقع، أن يقع البعضُ على كنوز عظيمة كانت في ملك أشخاص رحلوا عن العالم منذ مدة.

وتضيع كنوز أخرى فتبقى مدفونة تحت الأرض، في قبو ما، أو أماكن أخرى شبيهة.

في النزل الذي كنت مقيماً به في مدينة طنجة احتاجوا إلى ترميم أحد فناءيه اللذين كانا في غاية الجمال، وعندما شرعوا في استبدال بعض اللبنات المكسورة، عثروا على عدد لا يحصى من النقود الذهبية والفضية.

لكن ميل المغاربة إلى كنز الأموال يظهر بشكل جليّ في الحادث الذي سأذكره الآن. والواقعة غريبة في الحقيقة.

كان يوجد، منذ سنوات قليلة، في مدينة موغادور، باشا شيخ شديد البخل، ويخشاه الناس بسبب ما يقترفه من نهب وسلب.

لقد كان المال، بالنسبة إلى ذلك الشيخ الجشع، هو الإله الوحيد.

كان المثقال من الذهب الإسباني أفضل هدية يقبلها، وأحسن طريقة لكي يُستصدر منه أصعب القرارات.

كان شديد الشغف بذلك النوع من النقود إلى درجة أنه، ذات يوم، أرسل في طلب نائب القنصل الإنجليزي بموغادور، والذي كان صديقاً مقرّباً إليه ويضع فيه، كما سيتضح فيما بعد، كامل ثقته، وقال له:

- أيها القنصل[1]! هل ترغب في ربح مبلغ من المال محترم ومعتبر؟

---

(1) لا يعرف المغاربة، لست أدري لماذا، كيف يقولون نائب القنصل، أو لا يريدون ذلك.

أجاب نائب القنصل:

- أجل، أرغب في ذلك.

- إذاً، سأسلِّمك ستة عشر ألف «دورو» أحتفظ بها مدّخرة، وأنت تذهب بها إلى إسبانيا، وتستبدلها بنقود ذهبية. ومقابل كل وحدة ذهبية، جيّدة الرنين، وذات وزن قانوني، ومقبولة بكلمة واحدة، سأدفع لك نصف «دورو». هل تناسبك هذه المعاملة؟

أنجز نائب القنصل، وهو رجل القرارات السريعة، عمليات حسابية في ذهنه، وأجاب بحزم:

- طبعاً تناسبني! هات المال، ومنذ الغد أخرج إلى قادش، مستغلّاً خروج حرّاقة إسبانية قد أنهت تحميل بضاعتها من الصوف.

سلّمه الباشا ستة عشر ألف «دورو» بعملات مختلفة، وهذا يدل على ثقته الكبيرة في ممثّل إنجلترا.

وقد انطلق هذا الأخير فعلاً في اليوم التالي نحو مدينة قادش الجميلة والبهيجة. وبعد انصرام مدة عاد نائب القنصل، الذي كان قد كلّف من ينوب عنه في أعماله بموغادور طوال فترة غيابه، وهو يحمل معه ألف قطعة ذهبية إسبانية، على أغلبها صورة كارلوس الثالث.

كان الباشا ينتظر صديقه بفارغ الصبر. وعندما خلا إليه في حُجرة منعزلة، انطلقت عملية طويلة لفحص العملات النفيسة، ووزنها، واختبار رنينها. وخلال تلك العملية تناولا على الأقل عشرين كأس من الشاي، يوزّعها عليهما العبد المقرّب من الباشا الشيخ، ودخّنا من الغليون عدداً مماثلاً.

وكان الباشا كلما فحص بدقة قطعة ذهبية، بواسطة مكبِّرة عظيمة، بعد أن يكون قد وزنها في ميزان صغير وجعلها ترنُّ بضربها بالأرض، وضعها داخل كيس من الجلد، ودفع إلى نائب القنصل نصف «دورو».

وبهذه الطريقة، وواحدة تلو الأخرى، أحصيت القطع الذهبية الألف. وكانت كل عملة تدخل الكيس الذي يمسكه الباشا بين رجليه، تدل على أن الإنجليزي سيحصل على نصف «دورو». وبذلك حصل فعلاً على مبلغ محترم بلغ عشرة آلاف ريال.

كل القطع الذهبية كان لها وزنها المناسب، وترنُّ مثل جرس، وكانت بالإضافة إلى ذلك صفراء، جميلة، ولامعة. وبكلمة واحدة، لم يكن من مزيد يمكن أن يُطلب منها.

وعلى الرغم من أن المغربي كان يطلق، في مرات كثيرة، وهو يسلِّمُ أنصاف الريالات، زفرات أحرَّ من آهات محبٍّ بعيد عن محبوبه، إلا أنه كان في الوقت نفسه سعيداً مثل أيام العيد.

وكان الإنجليزيُّ بدوره فرحاً جداً؛ فقد حقق معاملة رابحة، على الرغم من أن صرف الذهب كان حينئذ مزدهراً كثيراً بقادش.

وعندما حصل كل واحد منهما على ماله، وفي لحظة توديعه بمحبة، قال نائب القنصل:

- صديقي الباشا، متى ستشغلني بمعاملة مماثلة من جديد؟

- انتظر، انتظر قليلاً -أجابه الباشا-، سأرى إن في إمكاني، بداعي الضرائب، أن أستولي على قطعان قبيلة تيسكدلت أو فيالبير[1]، وعندها سنتحدث في الأمر.

---

(1) اسما قبيلتين مهمتين تخضعان لنفوذ الباشا.

تصافح الرجلان السعيدان بحرارة، وابتسما مثل ذئبَين يكشِّران عن أنيابهما.

في صباح اليوم التالي، خرج الباشا من مدينة موغادور، ممتطياً بغلاً متيناً، لا يصحبه سوى عبده المفضَّل؛ ذاك الذي كان يوزِّع عليهما الشاي في اليوم السابق.

إلى أين كانت وجهته؟

كان قاصداً داراً صغيرة يملكها، تقع في ضواحي المدينة. وكانت الدار محاطة ببستان مسوّر.

أغلق الباشا على نفسه باب الدار ومعه ماله وعبده، وبقي بها طوال اليوم.

وعند الغروب دخل المدينة.

لكنه دخلها وحيداً.

ذات يوم وُجد العبد المسكين، في طريق موغادور، مقتولاً بطعنات اخترقت كل جسده.

من السهل التنبؤ بهوية قاتله.

قتله عمله.

يبدو أن دافن الذهب ذاك لم تبلغ ثقته في عبده مبلغ ثقته في صديقه نائب القنصل، ورأى من الحكمة أن يرتكب جريمة قتل لحفظ ماله.

جميع السكان، وأولهم أحد أبناء الباشا، كانوا واثقين من أن الباشا الشيخ هو مقترف تلك الجريمة المروعة. لكن لا أحد تجرّأ على مواجهته بالأمر، ولم يكلِّمه أحد في الموضوع. من كان يستطيع أن يقدم على ذلك؟

ألم يكن المالك المُطلَق لعبيده؟

ثم، أليس هو الباشا القوي، المتحكِّم في الديار والسكان؟

يجب أن أنبّه إلى أن صرف العملات الذهبية لم يكن سرّاً بالنسبة إلى أي أحد، لكن السرّ كان المكان الذي أخفيت فيه.

انصرمت فترة من الزمن.

تعرّضت قبائل تيسكدلت وفيالبير للنهب على يد الباشا، لا أدري تحت أي ذريعة، وكان نائب القنصل يستعدُّ للقيام برحلة أخرى إلى قادش ليقتنص العملات الذهبية، عندما أنشب الموت أظافره المرعبة في قاتل العبد.

وكانت جثته لا تزال دافئة عندما انتقل أبناء ذلك الشقيّ إلى تلك الدار الصغيرة حيث كانوا يعتقدون، عن حقٍّ، أن أباهم يخفي فيها العملات الذهبية الألف.

لكن ما أخدع الآمال في هذه الدنيا!

عبثاً قلّب أولئك الأبناء، الشبيهون بأبيهم، جميع أنحاء أرض البستان. وعبثاً، أيضاً، فتّشوا الدار من أعلاها إلى أسفلها.

لم تظهر العملات الذهبية في أي مكان.

اشتدَّ الغضب بورثة الباشا فأمروا بتهديم البناية، واضطلعوا هم أنفسهم بتفتيشها حجراً حجراً، وقلّبوا حتى أساساتها.

لا أحتاج أن أصف مدى خيبة الباحثين عن الذهب. كانوا واثقين كل الوثوق من أن عملات المعدن النفيس كانت هناك. لقد أكّد العديد من الأشخاص أنهم رأوا المرحوم الباشا يدخل الدار الصغيرة مصحوباً بالعبد التعيس. ولم يتحرك الباشا من هناك إلا عند اقتراب المغرب، ومن

ثم لا يمكن لعملات الذهب أن تكون أي مكان آخر عدا البستان أو الدار المهدَّمة.

ذاك أمر لا ريب فيه. واضح وضوح ضوء النهار.

وعلى الرغم من ذلك لم تظهر العملات الذهبية. لقد خبّأ الباشا كنزه بصورة متقنة.

ولا شكّ في أن ذلك الكنز لا يزال مختفياً.

ذات يوم، وعندما لن يكون أي واحد من الناس منشغلاً بالبحث عنها، ستظهر تلك العملات التي تحمل صور الملك كارلوس الثالث، وسترى النور من جديد.

الفصل السادس والعشرون

وداعاً أفريقيا! الوداع!

كان يقترب الوقت الذي عليّ أن أضع فيه نهاية لاغترابي الإرادي في أفريقيا؛ وقت مغادرتي لذلك البلد بعد أن قضيتُ به ست سنوات تقريباً.

في الوقت الذي لم أكن أنتظر فيه ذلك البتة، وصلني خطاب من صديقي ونصيري، يخبرني فيه أن ما بذلته من جهود، قد أهّلني لأن أتقلَّد مسؤوليات جديدة في أروقة وزارة الدولة.

كان فرحي بتلك الرسالة عارماً.

فعلى الرغم من أنني كنت قد اعتدت تقاليد بلاد البربر، وأن مرور الزمن كان قد أنساني بعض العادات التي كنت من قبل شديد التعلُّق بها، فقد كانت تأتي عليّ لحظاتٌ يؤرقني فيها الحنين إلى أرض الوطن.

وتلقّيت أيضاً مع رسالة صديقي رخصة ملكية مدتها أربعة أشهر، كي يتسنى لي استرداد عافيتي، وإن كانت صحتي، في الحقيقة، لم ينلها سوء، وأحمد الله على ذلك.

أكرِّر أن فرحتي كانت عظيمة.

كنت سأرى من جديد البلدة التي ولدتُ فيها، وأصدقاء طفولتي، وعائلتي كذلك. كنت سأرى بيت الأسرة.

لكن قلبي كان يعصره أسى عميق، لا يزول، أسى لم أتحدّث عنه إلى حدّ الآن.

منذ عامين مات والدي، والدي الحبيب. ولم يكن لي نصيب في أن أحظى بالمتعة المرّة في أن أغلق عينيه.

كانت السماء تعاقبني على عقوقي. تركتُ وطني، غير آبهٍ بنصائح من خلّفني، إلى درجة أن ذلك قد أثّر فيه كثيراً، وأن الرجل الطيب قد مات بعض الوقت بعد ذلك وهو يتعجّب:

- كنتُ أعلم أني سأموت وابني غائب!

ليباركه الله، مثلما أباركه أنا الآن في هذه اللحظة الرفيعة!

صحيح أني كنت قد انخرطت في مسيرٍ عمليٍّ لامع، وأني كنت بذلك قد ضمنتُ مستقبلي (أو هكذا على الأقل كان يُخيَّل إلي حينئذ)، لكن دودة ظلت دائماً تنخر في صدري، دودة الضمير الذي كان يتهمني بأني قد عاكستُ رغبة من منحني الحياة، ولو أني فعلت ذلك من أجل غاية حميدة.

يا لأبي المسكين!

كنت عائداً إلى دياري بعد طول غياب، ولكني لن ألقاه بها!

باركني وهو على حافة القبر. لكني أنا لم أكن ابناً صالحاً كما يجب! بهذا أخبرني ضميري، وهو القاضي الذي لا يميل.

ليغفر لي الله طموحي، إن أمكن أن نسمّي تلك الرغبة طموحاً في أن أصير شيئاً في هذا العالم وأن أضمن العيش الكريم!

* * *

عشية خروجي من طنجة أقام لي أصدقائي في البعثة الإسبانية مأدبة وداعٍ فاخرة.

سيظلون هم في المنفى، وأنا كنت عائداً إلى إسبانيا.

تأسّف الجميع لرحيلي، غير أن أسفهم لم يكن نتيجة أنانية حقيرة، بل كان ثمرة مَعَزَّة؛ فقدوا برحيلي رفيقاً طيّباً.

وكنتُ بدوري آسفاً لرحيلي عنهم، فقد كنت أعلم أني أحتاج إلى كثير من الوقت لتعويض صداقتهم ومودتهم بصداقات جديدة تستطيع أن تُخفِّف من أثر ذكريات أولئك الشبّان الرائعين والأصدقاء الأوفياء.

أهداني أورتيث دي ثوكاستي، الذي ذُكر اسمه مرتين أو ثلاثاً في ثنايا هذا العمل، غطاء سفر رائعاً، وأهداني رودولفو فيدال عباءة إنجليزية استوردها خصيصاً لي من مدينة جبل طارق.

أما أنطونيو أورفيلا، حفيد الطبيب المشهور الذي يحمل الاسم نفسه، وأحد شباب قسم اللغات في البعثة، فقد أهداني كيساً كبيراً من السيجار الهافاني، والسجائر، وقوارير العنبر، والغلايين، وعلب الثقاب... إلخ. وقد كان أنطونيو أورفيلا مدخِّناً كبيراً.

وحتى الترجمان المورو المنصور بناصر قدَّم لي هدية خاصة، تمثلت في قبعة تونسية، وخنجراً مرهفاً حادَّ الرأس.

وفي الأخير عانقني الفرّوج، المخزنيُّ الهُمام الملازم لي، بقوة وهو يبكي مثل طفل، وقال لي:

- اذهب أنت مع الله الكريم العظيم! أنت تكون مسيحياً نبيلاً (أراد أن يقول إني شخص جيد)، وأنا أشعر بحزن كبير!

وقد أهداني الفرّوج هدية مناسبة لغرائزه الحربية: قدّم لي أحد أجمل سيوفه، مصنوعاً بفاس، مزيّناً بخيوط الحرير الأحمر.

أصدقائي الطيبون!

انصرمت الآن سنوات على تلك اللحظة التي ودّعتهم فيها، ولا أزال أشعر بقلبي يخفق برفق تعبيراً عن جميل العرفان.

إن أجمل هدية يمكن أن أتلقاها، وما يؤثر بقوة في روحي، هو عربون الصداقة مهما كان صغيراً. وتلك البراهين لا أنساها أبداً. وأنا أملك، بحمد الله، ذاكرة ممتازة.

* * *

ألقيتُ وداعي الأخير على مدينة طنجة، وأنا على ظهر السفينة الحربية «كونسويلو»، التي كانت متوجِّهة إلى قادش، وقد تركتُ بطنجة أشخاصاً كثيرين يحبونني مثل أخ شقيق.

وإذا ما وقع هذا الكتاب صدفة بين يدي أحد أولئك الأشخاص الذين أحبهم فليعلم أني لن أنسى أبداً تلك الذكريات العزيزة، وأن الاعتراف بالجميل هو عندي اليوم مثل الأمس، وكذلك في الغد لا شكّ، شعور أساس ودائم.

«وداعاً أفريقيا، وداعاً!». همستُ من فوق الباخرة «كونسويلو»، وأنا أتأمّل الساحل الأفريقي الذي كنت أبتعد منه بسرعة.

وداعاً طنجة، أيتها المدينة الحبيبة!

وداعاً أصدقائي!

ربما لن أراكم أبداً من جديد!

هذا ما كنت أقوله، بينما كانت دمعتان سميكتان تنهمران فوق خدّي.

ما أصغرها ضريبة أؤديها لتلك الذكريات التي كانت تملأ روحي!

خاتمة[1]

سأختم كتابي هذا بالتأكيد على أني عند كتابته لم أسعَ إلى تحقيق ادّعاء ما، غير أن ذلك لا ينفي حقيقة ما رويت فيه.

قضيتُ في المغرب ستة أعوام تقريباً، كان لي فيها وقت كافٍ لكي أدرس، يوماً بعد يوم، تقاليد سكّانه، وكان يبلغ بي الحرصُ على معرفة تلك التقاليد أن خاطرتُ غير ما مرة بحياتي في سبيل ذلك.

إن «مدينة النُّعاس»، مثلها مثل المدن الأخرى داخل بلاد البربر، لا يمكن الوصول إليها كما قلنا من قبل، وتبقى مغلقة في وجه التجارة والصناعة، بل في وجه كل ثمار الحضارة المفيدة.

وإذا كان البعض يمكن أن يرتاب في صحّة ما أوردناه حول شعوذة الموروس فيما يتعلق بـ«المدفع المقدس» في العرائش، فإني أستسمح القراء في الاستشهاد بفقرة مقتبسة من رحلة البحّار خورخي خوان[2]، وهي فقرة تتناول الموضوع نفسه:

«كانت توجد في العرائش تحصينات قديمة، مغربية ومسيحية، كلها مخرّبة وفي وضع غاية في السوء. في أبواب المدينة وفي أسوارها،

---

(1) يسبق هذه الخاتمة فصلان يتحدث فيهما الكاتب عن عودته إلى موطنه وعن أمور شخصية لا تدخل في صلب موضوع الرحلة، ارتأينا أن نستغني عنهما. (المترجم)

(2) مثلما قلنا في هذا الكتاب فقد كانت رحلة هذا البحّار في عهد الملك كارلوس الثالث، في أوائل سنة 1767.

كانت تظهر للمُشاهِد قطعاً كبيرة من الرخام تحمل كتابات تؤرِّخ للبناء وللإصلاح في زمن الهيمنة الإسبانية، وهي رخامات أفلتت من سوء تدبير المغاربة وإهمالهم.

وكانت هناك أيضاً في بعض الحصون والمعاقل مدافع من صنع إسباني، وآخر مغربي، وهو موضوع تقديس كبير إلى درجة أنه كان يعتبر «قديساً» لدى الموروس. وكان يُعرف لدى السكان الأصليين بـ «المامون»، وكان مدفعاً قديماً أكثر سمكاً من المعهود. صُنع بفاس، وفق ما تقوله الكتابات العربية، وحُمل من مكناس إلى العرائش، في عام 1766.

كان المدفع ثقيلاً جداً، ولم يجد البحّارة المغاربة المكلَّفون بنقله القدرة الكافية على ذلك، ومن ثم أضفوا على الوضع طابعاً عجائبياً وخارقاً، حيث أكدوا أن نقل المدفع إلى العرائش لن يكون ممكناً إلا إذا قُدِّمت الأضاحي.

أقرَّ السلطان ذلك وأمر بذبح عشرين ثوراً، وبعد ذلك ازداد عدد الأذرع المشاركة في نقل المدفع وتحكَّمت بشكل أفضل في العملية، المنحصرة في تحريك ذلك الكمّ من البرونز بواسطة رافعات في غياب العربات، وهكذا تَحَقَّقَ نقلُهُ حتى وصل إلى العرائش. وهناك وضع في مخزن بعد أن توجّب تبخيره.

وغير بعيد من المخزن سرعان ما ظهر قديس يدعى «ماموناً»[1]، وهو الأمر الذي جعل المريدين يشيعون أن المدفع قد شوهِد وهو يزور مرّاتِ القديسَ ليلاً، ثم يتطهّر في البحر.

(1) يُسمى اليوم للّا منّانة، وهو اسم قديسة مدفونة في ذلك المكان.

وبذلك تأكّدت بشكل واضح قداسةُ ذلك السلاح، وتحوّل في نظر الأهالي إلى موضوع تقديس حقيقي».

ولكي نستدلّ كذلك على ما قلناه من أن السفير السينيور دي ميري وكولون كان عليه قبل أن يحضر إلى بلاط السلطان أن يسبقه ممثلوه وهم يحملون هدية ثمينة إلى عاهل بلاد البربر، نورد فقرة أخرى من الرحلة المذكورة للبحّار المشهور:

«وقتاً قصيراً بعد أن استقررت في المغرب، يقول خورخي خوان، جاء أحد أعيان الموروس ليحذّرني من لدن الإمبراطور أن أصدِّقَ ما قد يصل إلى سمعي ما لم أسمعه منه هو شخصياً.

وبعد ذلك أرسل إليّ هديتين، إحداها من عشرين والأخرى من ثلاثين صحناً متنوعاً من مائدته الخاصة، وهي الهدية التي تكرّرت كل الأيام التي استغرقتها السفارة في ذاك البلاط.

كان السلطان يعلم أن من بين الهدايا الثمينة التي أرسلها إليه ملك إسبانيا كان يوجد عدد من الطيور، ودُبّان، وعدد كبير من الكلاب؛ وبما أنه كان يرغب في أن يرى تلك الحيوانات، فقد أرسل في طلبها بحجة أن يحررني من ثقل حراستها والعناية بها.

وما أن صارت الحيوانات في عهدته حتى أراد أن يختبر شراسة الكلاب، فأطلق أربعة منها ضدّ ذئبة، وكلبَ صيد صغير ضدّ آخر كبير كان يملكه، فأسعدته شراسة تلك الحيوانات وشجاعتها، وأُعجب بها وبالدُّبّين باعتباره هاوياً كبيراً للوحوش غير المعروفة في بلاده».

* * *

سأختم هذا الكتاب بأن أعرب لكل من سيتواضع لقراءة صفحاته غير المنسّقة، أني على الرغم مما قلته في الفصل السابق، فإني جد سعيد بزيارتي إلى «مدينة النُّعاس».

لا يستطيع أي مسيحي أن يزور تلك المدينة المجهولة إلا إذا كان مرافقاً لسفارة بلد محترم أو مرتدّاً عن دين آبائه. وكل من يحاول ذلك يجد الموت في طريقه، قبل أن يصل إليها بمسافة طويلة. ولا أحد، فيما نعلم، يملك، أو كان يملك، من الجرأة ما يدفعه إلى المغامرة بحياته لمجرد إرضاء فضول.

ولا بدَّ أن القرّاء قد استغربوا أن يستقبل السلطانُ سفارة إسبانيا في ساحة عمومية. كذلك هو التقليد، وكذلك كان دائماً.

في مذكرات رسول كارلوس الثالث إلى بلاط بلاد البربر، نجد الأمر نفسه مشاراً إليه بالعبارات الآتية:

«بعد أن حُدِّد يوم الاستقبال المهيب بواسطة إرسالية وُجِّهت إلي يومين قبل ذلك، خرج وفد الشرف، يتشكّل من سبعة وعشرين من الخيول المحمّلة بالهدايا الموجَّهة إلى السلطان، ووصلنا ساحة الاستقبالات العمومية، حيث التقينا أول وهلة بصفٍّ من السّود حول أسوار القصر.

لاحت من قريب ستة خيول مطهمة بصهوات ذهبية، وواحدة منها كانت مرصّعة بأحجار كريمة. وكان مع كل حصان عبد أسود يمسك بلجامه وبمنشفة يهشُّ بها الذباب عنه.

وعلى مسافة خمسمئة خطوة كان ألفان من الجنود الراجلين، المسلّحين بالسيوف، يشكِّلون دائرة كبيرة. وكان يوجد ضمنهم الأسرى المرسلون من إسبانيا.

وعندما ولج الوفدُ الفضاء المحميَّ من لدن أولئك الجنود، تقدَّمَ القائدُ الذي كان على رأسهم ليتلقّى من جديد أوامر السلطان، الذي أعلن في الحال أنه مستعد لاستقبال الرسول المسيحي.

كان السلطان يركب جواداً.

تقدّم الوفد حينئذٍ، وعند الوصول إلى ما يقارب المئة خطوة من الإمبراطور قمنا جميعاً، بإشارة من الترجمان المكلَّف بالسفارات، بانحناءة تعظيم كبيرة، وتكرّرت تلك الانحناءة ثلاث مرات في مواقع مختلفة.

وصلنا قريباً من السلطان، الذي كان بسيط اللباس، وهو بذلك يتخذ مظهر طالب العلم أو الأديب، ويركب حصاناً أسود مكسوّاً بمخمل قرمزيّ ذا لجام، ورِكاب السرج من ذهب، وزمام من حرير أزرق، وقربوس مغطّى بمنديل من خيط مخطّط.

وكان إلى يمينه ابنه مولاي المامون، وعلى شماله عمّه بن ترشيفت[1]، وخلفه بعض أعيان الإمبراطورية. وكان مجموعة من السود يحيطون بحصان السلطان بأيديهم منشفات لهشِّ الذباب، وأحدهم يحمل شمسية كبيرة من مخمل أصفر وقرمزي.

كسر السلطان الصمتَ بأن أعلن أن لا ملك في العالم يحمل مقدار ما يحمله هو من التقدير لملك إسبانيا، وقد أجبتُ على كلامه بما يليق بالمقام.

وأضاف السلطان أنه ممتنٌّ لهدية الأسرى وفرحٌ بها كما لو أُهديَ أوروبا بكاملها، فصاح الحاضرون:

(1) ورد الاسم بالحروف اللاتينية هكذا: Bentarchift، ولا بدَّ أن تحويراً قد لحق الأصل العربي، لكنني لم أستطع استدراكه انطلاقاً من المصادر التاريخية التي عدت إليها. (المترجم)

- أطال الله عمر مولانا!

أعربتُ حينئذ عن آيات الصداقة والوئام التي حُمِّلت بها، ووضعتُ بين يدي السلطان خطاب الاعتماد الملكي وطوقاً ثميناً من اللآلئ عربون محبّة، مبيّناً في الوقت نفسه عدداً من العروض التي كُلِّفتُ بتقديمها، لتمتين العلاقات بين الشعبَين.

وقد أجاب العاهل المغربي على ذلك بكلمات شكر، كان الحاضرون يرفقونها بأصواتهم:

- حفظ الله الملك!

ثم أعطى السلطانُ خطاب الاعتماد لسيدي أحمد الغزال، وأمره بترجمتها إلى العربية، ومن ثمَّ ودّعني بلطف، معلناً بذلك انتهاء الاستقبال.

في الأيام التي تلت الاستقبال قمت بزيارة أقرباء السلطان وأهم أعيان البلاط، موزِّعاً عليهم هدايا ثمينة، لم يكونوا ينتظرونها بلهفة فحسب، بل كانوا يطلبونها بإلحاح كبير.

وخلال كل ذلك ظلَّ العاهل المغربيُّ يغدق عليّ يوميّاً أطباقاً ومؤناً وافرة، بعضها من ثمار بساتينه.

وفي الوقت نفسه كان جلالته يتناول الحلويات والمأكولات على الطريقة الأوروبية، يحصل عليها من طبّاخي السفارة، الذين أغدق عليهم هدايا متنوعة، مالية وأشياء من البلد.

حضرت في تلك الأيام ذاتها سفارة من ملك فرنسا، لكنها لم تلبث أن غادرت، لأن السلطان، عند التطرُّق معهم إلى مسألة عبيد مغاربة أسرى في مالطا، فضّل صداقة الإسبان ومعاملتهم.

وحلّت أثناء ذلك أيام عيد الأضحى، وفي اليوم الأول منها الذي وافق السابع من يونيو، طلع السلطان راكباً عربة هديّة من المبشّرين الإسبان، يجرّها بغل ويحيط بها خدمٌ سودٌ، ليحضر ألعاباً نارية.

واقتصرت تلك الألعاب على عجلة مكلّلة، وضعوا في جزئها العلويّ تمثالاً مُضاء مصنوعاً من الورق والقصب. لم تدم النيران سوى لحظات، حيث استُنفد في الحال البارود الذي وضعوه في العجلة ولم يبقَ واقفاً سوى تمثال القصب، والذي كان يبدو أنه هو موضوع ذلك التحوّل السحري.

بعد اختتام ذلك العرض، قُدِّم الطعامُ للسلطان، داخل خيمة، على إيقاع موسيقى، يتقدّمها اثنا عشر مُقنَّعاً، يُغطّون وجوههم ويسيرون عراة الأجسام ما فوق الحزام، أما ما تحته فكانوا يغطّونه بأوراق مصبوغة.

عند انتهاء الأكل وُزِّعَ ما فضل من الطعام على الجيش والحاضرين.

في اليوم الثامن من يونيو أقيم حفل مماثل، وقدّم السلطان، أداء لشعائر دينية، صدقاتٍ كبيرة[1]، بينما كان الأعيان يتظاهرون بأنهم يقومون بالمثل وهم يوزِّعون على الفقراء حفنات من الفواكه.

وبلغنا أن مرابطاً يملك أسيراً إسبانيّاً، يزيد في قيمة فديته كلما عُرض عليه الثمن الذي طلبه من قبل. فلما أُخبر بذلك السلطان أمر بإحضاره وسلّمني الأسير، ومعه أسرى إسبان آخرون ولاجئون من سبتة.

(1) يقدّم المسلمون الصدقات في يوم العيد فحسب، وهو المعروف عندهم بعيد الأضحى. أم خلال باقي أيام السنة، فإنهم لا يلتفتون إلى تضرعات المعوزين مهما بلغت درجة بؤسهم لأنهم يؤمنون أنه من المعيب التصدق على أولئك الذين عاقبتهم الأقدار بالفاقة. وفي المقابل يشترون الطيور التي يسجنها في الأقفاص بعض الموروس المضاربين، ويحرِّرونها، لاعتقادهم بأنها أرواح بريئة ومن البربرية إبقاؤها سجينة.

وعند اختتام المفاوضات الرسمية، حدَّد السلطان اليوم التالي، وهو التاسع، موعداً لمقابلة الوداع، والتي تمّت في مكان الاستقبال ذاته وبالاستعدادات ذاتها».

في الوقت الحالي لا يملك المغاربة ولو مركباً حربيّاً واحداً. في بداية هذا القرن كانوا يملكون بعض الزوارق، أحدها قديم ومهترئ وغير صالح للاستعمال تماماً، وكان لا يزال راسياً منذ سنوات قليلة في خليج العرائش.

إن كسل المغاربة وإهمالهم كبير، ويبدو أنهم يوماً بعد يوم أكثر تأخُّراً ويملكون إرادة أقل من أسلافهم في القرن أو القرنين الماضيين لدفع أمتهم المتخلِّفة إلى اللحاق بركب الأمم المتحضِّرة.

إن السلطان محمد[1] الذي توفي مؤخراً، كان قد أمر بوضع جسر معلّق فوق نهر من أصعب الأنهار في المغرب. ولولا أن الكثير من الناس قد غرقوا وهم يحاولون عبور ذلك النهر، ولولا كثرة ملاحظات مستشاريه، لما شغل السلطان نفسه بالتفكير في مثل ذلك النهر، ولما انشغل بانعدام أي مركب لعبوره.

ظلوا يُحدِّثونه عن ذلك النهر مرة وأخرى إلى أن قرّر أخيراً، مثلما سبق أن قلنا، أن يأمر ببناء جسر معلّق. غير أن هذا الأخير، كما هو مفترض، لم يكن من الممكن أن يُصنع في المغرب.

وأمام هذا الواقع انطلق رسول منه إلى إنجلترا، وهناك توجَّه، دون إضاعة للوقت، إلى زيارة مهندسَين شهيرَين.

---

(1) كان شديد الولوع بالموسيقى، وقد عُثر في قصره على دفاتر كثيرة مليئة بألحان من وضعه، والتي ستصدر، وفق صحيفة مدريدية، عن دار نشر لندنية.

وبعد أن أخبر الرسولُ المهندسَين برغبات السلطان، قالا له إنهما يحتاجان إلى مشاهدة النهر ودراسة ضفّتَيه، ليتمكّنا من أخذ القياسات الضرورية لطلب بناء الجسر.

يجب التنبيه إلى أن السلطان ورسوله كانا يعتقدان أن بإمكانهما العثور على جسر معلَّق في إنجلترا بسهولة، كما لو أن الأمر يتعلق بزوج أحذية.

وهكذا عاد رسول إمبراطور المغرب إلى أرض البربر مصحوباً بمهندسَين.

قام المهندسان بالدراسة الضرورية للنهر، وهو كما يبدو نهر عريض جدّاً وذو تيّار عنيف في جريانه السريع نحو البحر، وعند عودتهما إلى إنجلترا صنعا جسراً متيناً، وعريضاً، ورائعاً.

نُقِلَ الجسرُ إلى بلاد البربر. لكن عندما حان موعد تثبيته فوق النهر عنَّ للسلطان أن يسأل إن كان بإمكانه أن يُزيله من مكانه ويعيده كلما شاء ذلك، وهل ستكون تلك عملية سهلة التحقيق.

أجاباه بالنفي، وحينئذ أمر السلطان بأن يبقى الجسر دون تعليق على جانب النهر، إلى أن يتّخذ قراراً آخر.

والسبب الذي أجبره على ذلك السلوك هو خشيته من أن تستفيد إحدى القبائل المشاغبة، والتي كانت تتمرد باستمرار على سلطته، من وجود الجسر في حربها ضدّه، فتعبره كما شاءت وفق أهدافها الاستراتيجية.

وهكذا لم يُعلَّق الجسر.

وهو اليوم يستمرُّ بجانب النهر، مرميّاً تماماً مثل شيء لا قيمة له، ولم يخطر في بال أحد أن يثير من جديد أمر تعليقه أمام السلطان أو أمام وزيره.

ويستمرُّ غرقُ الكثير من الناس وهم يحاولون عبور النهر بسبب سرعة تياره.

ولا يجاري سوء تدبير المورروس سوى سوء ظنِّهم.

يغلب على معاملتهم الطابعُ الرسميُّ، والرزانة، والخداع، ويبرعون في إخفاء ما يختلج في قلوبهم إذا ما ناسبهم ذلك.

لا تستطيع أبداً أن تُدرك نواياهم الخفية، المتوارية خلف هدوئهم الظاهر. كبرياؤهم لا حدَّ له، حيث لا يبدون أدنى إعجاب بموضوع لا يعرفونه. سيكون من العبث أن تُقدِّم لهم الأشياء الأكثر ندرة، أو الأعظم قيمة. سيتأمّلونها دون أن يُظهروا زائد فضول، ودون إطراء أو تعجُّب، وأقصى ما يمكن أن يصدر عنهم إيماءة صغيرة تدلُّ على رضاهم، كأنهم يقولون:

«يبدو لي رائعاً».

المورروس حقودون إلى أقصى درجة. ولا يضاهي حقدهم سوى شجاعتهم. وفي هذا الأمر الأخير يجب أن نُنصفهم. فإذا كنَّا قد انتصرنا عليهم في حرب أفريقيا، فذلك لأننا كنّا نملك وسائل الدفاع أكثر ممّا يملكون؛ ولأننا أكثر تقدُّماً منهم بكثير في فنّ الحرب الدمويّ.

وإذا كان جيشُنا شجاعاً إلى درجة البطولة؛ وجنودنا يعرفون كيف يصبرون لأعظم المشاق والتعب دون أن يشتكوا، فإن المورروس مثلهم في ذلك.

فيما يتعلق بالشجاعة، يسير الإسبان والبربر متساويين.

أما النساء المغربيات فإنهنّ في العموم جميلات جداً وساحرات. وأجمل ما فيهنّ عيونهنّ التي تحمل تعابير غاية في الرقة، وبريقاً لا يُقاوَم.

رقيقاتٌ، ورهيفاتٌ، وعاطفياتٌ، يعشن في عبودية كبرى.

إن المرأة في بلاد البربر، كما قلنا ذلك سابقاً، ليست رفيقة الرجل الجميلة، بل هي خادمة مسكينة لا تتجرأ على رفع عينَيها، ولا على النبس بأدنى شكوى في حضور مولاها المستبد والمتعسِّف.

إن الموروس هم مستبدون حقيقيون بالنسبة إلى تلك النساء المسكينات. لا يكونون معهنّ إلا متجهمين عابسين، لا يعتبروهنّ بقيمتهنّ؛ لا يفهمون أو لا يريدون أن يفهموا ما تنطوي عليه قلوبهنّ من حنان لا متناهٍ وحبٍّ مشتعل جيّاش، ويفضِّلون أن يكونوا، بالنسبة إليهنّ، مصدر خوف وموضوع عبادة حقيقية.

ما أبأس نساء بلاد البربر!

فمهما يكنّ جميلات ورقيقات، فإن قيمتهنّ أقل بكثير من قيمة حصان جيّد، أو سلاح من نوع ممتاز.

إن المرأة في ذلك البلد، الذي يمكن أن ندعوه متوحِّشاً، لا تجلس لمائدة الطعام إلا إذا فرغ زوجُها من الأكل.

و بهذا يكون كل شيء قد قيل.

إن المورو سيحسُّ بأنه قد أهين، ومُسَّ في كرامته أو في كبريائه اللامحدود، إذا ما وافق على أن تجالسه إحدى نسائه للطعام.

يتركون لهنّ بقايا طعامهم، ويعتبرون أنهم بذلك قد قاموا باللازم.

يجب أن تفهموا، قرّائي الأعزاء، أن هنا، مثلما هو الأمر في كل مكان، ليس هناك قاعدة من دون استثناء.

المرأة، بالنسبة إلى المورو من بلاد البربر، حيوان جميل، وضروري، لكنها حيوان في آخر المطاف. لا يرون فيها سوى شيء نفيس أو موضوع متعة.

ما أكثر الدموع، وما أعظم اليأس الذي شهدته تلك الجدران التي كانت حبيستها تلك النساء الشقيّات، اللواتي كان من سوء حظّهنّ أنهنّ وُلدن وسط شعب جاهل، تحكمه قوانين مستبدة وقليلة الإنسانية.

يا للنساء المسكينات! أعود لأكرِّر مرة أخرى!

كم من كنوز الحنان تنطوي عليها قلوبكنّ! وما أعظم يأسكنّ الرهيب والمتوحِّد، والذي لا يجد من يواسيه؛ إنه فوق ما يمكن أن يتخيّله أي واحد!

في المغرب، عندما تصل المرأة عمر العلاقات العاطفية، تجد قلبها، مثلها مثل جميع نساء العالم، يضطرب برفق بفعل رغبات غامضة وغير مُفسَّرة. تحلم برجل محبٍّ وعاطفيٍّ؛ برجل يعرف كيف يفهم ويُقدِّر كنوز الحنان التي تحتفظ بها في روحها.

غير أن الكائن الحنون والرقيق، الرجل الشّهم والعاطفيّ، يتحوّل في الغالب إلى كائن عنيف وفظٍّ، عاجز عن إدراك مثل تلك العواطف الرقيقة والشاعرية.

ونقول رقيقة وشاعرية، لأن نساء بلاد البربر كنَّ لطيفات، ورقيقات، وحالمات، ويملكن من الخيال الخصب، ما يجعل كل ما يمكن أن نقول في الثناء عليهنّ باهتاً أمام الحقيقة.

لقد عرفتُ أنا في طنجة صديقة كبيرة وزوجة تاجر غنيّ، قالت لي في مناسبة معيّنة:

- أنا أموت حبّاً في زوجي، وهو لا يفهم ذلك! أريد أن ألاطفه بلمسة، أن ألقيَ بنفسي بين ذراعيه، فيبعدني ببرودة، وبقسوة تقريباً! آه! من رجال هذا البلد، إما أنهم لا يملكون قلوباً، وإما أنها قد قدّت من حجر!

وكانت وهي تقول ذلك، ترخي دموع الحنان واليأس في الآن نفسه.

تلك الشقيّة التي كانت تشتاق إلى حبِّ الرجل الذي ارتبطت به، وتظمأ لحنانه، لم تكن تحصل على مقابل لشدّة لهفتها سوى على عاطفة هادئة ورزينة، لكي لا نقول لا مبالاة باردة.

- لكي تعلم مرة واحدة من هو «الصغير» - قالت لي («الصغير» كان اسم زوجها) -، سأحكي لك ما حدث لي معه، منذ سنتين تقريباً. كان «الصغير» قد قام برحلة إلى تومبوكتو. وكانت رحلة الذهاب سعيدة، لكن الأمر لم يكن كذلك في الإياب. عند عبوره للصحراء أو الصحراء الكبرى، هجم عليهم بعض البدو، وكانوا أكثر عدداً من مرافقي «الصغير» وخدمه. لكنه دافع عن نفسه بشجاعة، ولم يستسلم إلا عندما سقط على الأرض وقد اخترمته الجراح.

حسبوه ميتاً فتركوه، بعد أن سلبوه كل ما كان يحمله معه، وأسروا كذلك خدمه. ظلَّ «الصغير» مرميّاً فوق الرمل، وفاقداً للوعي، يعلم الله مدّة ذلك. لكن الأجل الذي حدّده الله لحياته لم يكن قد حان بعد. عاد إلى وعيه، عندما كانت ظلمة الليل وسكونه قد أعقبا ضوء النهار الواضح.

كانت جروحه كثيرة، لكن لحسن الحظ لم يكن أي منها خطيراً. غير أنه كان ضعيفاً بسبب ما فقده من دماء. نهض بجهد كبير وشرع يمشي فوق الرمال الرهيبة، تقوده النجوم التي تسعف المسافرين كثيراً وهم يعبرون ذلك الرداء الرملي الهائل، فلا وجود هناك لطرق أو ممرات، ولا لأي شيء يدل على الطريق الذي يجب أن يُسلك، وقد لا تكون من علامات سوى عظام المسافرين والجِمال الهالكين من الجوع والعطش، في تلك الأماكن المرعبة.

والحمد لله مرة أخرى! لم يبرح «الصغير» أن وصل إلى واحة صغيرة تغطّيها نباتات جميلة، يجري من تحتها جدول صاف وبارد، أطفأ بمائه لهيب الظمأ الذي كان يلتهمه.

بعد أن استراح قليلاً، أخذ يمشي بين الأشجار المبثوثة على ضفتَي الجدول، وبعد خطوات قليلة وجد دوّاراً متكوِّناً من أكواخ مغطاة بالقصب، لكن فقيراً جداً، وهناك استضيف بكرم زائد.

وبعد أن شفي نهائياً من جروحه أكمل طريقه، إلى أن وصل إلى هذه المدينة بعد غياب طويل جداً.

كنت أبكيه لأني حسبته ميتاً، ولا شيء كان يعزيني في فقدانه. كنت أتألم في الليل والنهار من دون انقطاع، لأني كنت أعتقد أني لن أراه أبداً.

فلتتصوّر بهجتي وأنا أراه ذات صباح يعود متكئاً على عصا. فعلى الرغم من الآثار المرعبة فوق وجهه، وعلى الرغم من أسماله، فإني عرفته للتوّ.

أطلقتُ صيحة فرح وارتميتُ بين أحضانه. كنتُ، من فرط سروري، أقبِّلُ عينَيه، وخدَّيه الضامرَين، وأضمُّ رأسه إلى قلبي، الذي كان ينبض بعنف.

هل تظن أنه استجاب لملاطفاتي؟ آه! لا! ذاك سيكون نوعاً من الضعف بالنسبة إليه، هو الذي لا يتنازل عن مقدار ذرة من وقاره الإسلامي.

كل هذا جميل جداً، قال لي وهو يتحرر من ذراعَي، لكني أتيتُ متعباً جدّاً وأحتاج إلى النوم.

عندما سمعت كلامه هذا، أحسستُ كأن قلبي يتناثر إلى شظايا. ففي تلك اللحظة التي لن أنساها أبداً؛ وبعد كل ذلك الغياب الطويل، وكل تلك الأخطار التي اجتازها، لم يُظهر أدنى قدر من الحنان، فماذا

عساني أنتظر منه في ظروف الحياة العادية؟ لا شيء! فتور، وبرودة، وقسوة فحسب.

وعلى الرغم من ذلك فإني أحبه كل يوم أكثر، وتمرُّ علي لحظات أتضرع فيها إلى الله، بكل حماسة الروح، أن يزرع في قلب «الصغير» شرارة حبٍّ، أو أن يتوفّاني...

***

سأنهي بسرعة هذه النقاط أو الملاحظات التوضيحية، التي أختتم بها هذا الكتاب، بأن أوجِّه النصيحة إلى من يحب السفر، من بين قرّائنا، أن يزور مدينة طنجة، واحدة من أقرب المدن إلى إسبانيا.

في يومنا هذا لا يوجد بها أي خطر بالنسبة إلى المسيحيين، مثلما كان لا يزال يحدث في بدايات القرن الحالي.

إن طنجة، مثلها مثل باقي مدن المغرب، لا تشبه في شيء أي واحدة من مدننا الإسبانية؛ فأحياؤها، ودُورها، وسكّانها، وتقريباً كل عاداتها، تختلف كثيراً عن أحيائنا، ودورنا، وعاداتنا.

وبالإضافة إلى مدينة طنجة يمكن للمسافر المطّلع والملاحِظ أن يزور مدن تطوان، والعرائش، والقصر، وأصيلة، ومازاغان، وآسفي، وموغادور، وسلا، والرباط، من دون أن يتعرّض لمخاطر كبيرة.

وفي مقابل ذلك، فإن مدن تافيلالت، وسوس، وفاس، وبالخصوص مدينة مراكش، التي منحنا أنفسنا الحرية في أن نطلق عليها اسم «مدينة النُّعاس»، هي مدن يتعذّر الوصول إليها.

لن ينفعك في شيء أن تقول في هذه المدن:

«أنا مسافر مطّلع ومحبٌّ لدراسة تقاليد الشعوب الغريبة؛ أنا إنسان مسالم».

وكذلك لن يعني أي شيء، بالنسبة إلى سكان تلك المدن المقفلة، أن ينتمي المسافر إلى أعظم دولة في العالم، إن كان «كلباً مسيحيّاً».

فهذه الصفة وحدها تكفي لأن تجعل حياته في خطر كبير، ومن دون معجزة حقيقية، أو بفضل مثل الظروف التي رأيناها سابقاً، فإنه سيهلك لا محالة، ضحيّة الكراهية الرهيبة التي يخصّنا بها الموروس، وضحية فضول خطير جداً ومؤسف.

وأنا أعود لأقول مرة أخرى، إني جدّ راضٍ عن زيارتي لذلك البلد المجهول والمليء بالغرائب، ولن أقول إني فخور بذلك لأن هذه الكلمة لا يحسن وقعها من «عاطل».

قليلون، قليلون جداً أولئك الذين لهم مثل هذا الحظ.

إن «مدينة النُّعاس»، أغرب مدينة فوق الأرض، تستحق أن أكون قد أمضيتُ بأفريقيا، من أجلها، أفضلَ سنوات حياتي، وأن يكون السيد الوزير، الذي أدعو الله أن يمنحه في هذه اللحظة ألم أضراس رهيب، قد رأى من الملائم طردي إلى الشارع، في الوقت الذي لم أكن أتوقّع ذلك نهائياً.

«أعتقدُ أن وصول سفارة من سكّان الشمس ستثير لدى شعب مدريد فضولاً أقل من ذلك الذي أثرناه في قاطني مراكش ونحن نقترب من تلك المدينة، على وقع أصوات موسيقاهم الفظّة والنشاز، ودويّ مدفعيتهم التي أُطلقت على شرفنا.

كل الوجوه كان يعلوها فضول شديد.

لم تكن السياط بصفيرها الرهيب، ولا أعقاب البنادق العنيفة، كافية لردعهم، ومن كل صوب كانت تصلنا هتافاتهم المستغرِبة وصرخات نفاد الصبر؛ لأننا كنا بالنسبة إلى أولئك الناس، وأكرر مرة أخرى، حيوانات نادرة ومجهولة، تستحق أن تُفحص عن قرب».

❖ ❖ ❖

أنطونيو دي سان مارتين، كاتب وشاعر إسباني، خلّف أكثر من مئتي رواية ذات صبغة تاريخية، منها **مدينة النُّعاس، رحلة إلى داخل المغرب** (1873).

في هذا العمل، الذي يتخذ شكل رحلة إلى داخل بلاد المغرب، يكتشف القارئ أولى ملامح الاحتكاك السياسي والثقافي بين الغرب الأوروبي ممثَّلاً بإسبانيا والمغرب، بوابة العالم العربي والإسلامي الغربية، بُعَيد منتصف القرن التاسع عشر. فالكاتب يستوحي يوميات البعثة السِّفارية التي وجّهها ملك إسبانيا إلى سلطان المغرب عام 1863، ليرسم للمسلمين المغاربة، أو «الموروس»، من منظور كاتب شاب، صورةً غرائبيةً تجمع بين المتناقضات؛ بين القوة والضعف، الجمال والقبح، الرقة والوحشية. ويمزج في وصفه بين الوقائع التاريخية، والاستيهامات الغربية حول الشرق، والأطاريح الاستعمارية. والكتاب بذلك يقدِّمُ مادة خصبة لدراسة صورة الآخر العربي المسلم في الكتابات الأدبية الغربية الممهِّدَة للاستعمار في القرن التاسع عشر.

لوحة الغلاف للفنان جون سينجر سارجنت

ISBN 978-9953-68-877-0



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com